عقائل قريش

ولادة بنت المستكفي
٣٨٠-٤٨٠هـ

زُبيدة بنت جَعفر
١٤٧-٢١٦هـ

عُلية بنت المهدي
١٦٠-٢١٠هـ

سُكينة بنت الحُسين
٤٧-١١٧هـ

تأليف
سعيد الديوه جي

الدار العربية للموسوعات


م. سرمد حاتم شكر


عقائل قريش

اسم الكتاب: عقائل قريش

تأليف: سعيد الديوه جي

الطبعة الأولى: ٢٠١٣م - ١٤٣٤هـ

ISBN 978-614-424-092-2



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر حكاوي - ط ٩ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com



تأليف

سعيد الديوه چي

الدار العربية للموسوعات
بيروت





المقدمة

شاركت المرأة المسلمة الرجل في مختلف نواحي الحياة، ونبغ عدد كبير منهن في العلم والسياسة والأدب والفن، وأخبارهن مشتتة في مختلف الكتب، وقلما يجد الباحث تراجم مستقلة لهن.

وقد عزمت على أن أخرج سلسلة في تراجم بعضهن، وبدأت بعقائل قريش، فترجمت لأربعة منهن، **وهنّ السيدات**: سُكينة بنت الحسين، وزُبيدة بنت جعفر، وعُلية بنت المهدي، وولاّدة بنت المستكفي.

والله تعالى أسأل العون والتوفيق في إتمام ما بدأت.

سعيد الديوه جي

المدينة المنورة
في القرن الأول الهجري

كان القرن الأول الهجري من أزهى العصور التي مرّت على المدينة المنورة، ظهر فيها حوادث خطيرة، وانقلاب في الدين والسياسة والعلم والأدب والفن.

هاجر إليها الرسول ﷺ واتخذها دار دعوته، فسطع فيها نور الإسلام، وأضاء للعالم سبل الهداية، فبدد ظلمات الجهل والشرك.

وإليها جاءت الوفود من مختلف الأقطار، تدخل في دين الله أفواجاً، وتجيب داعي الله.

وفي المدينة انصبت كنوز القياصرة والأكاسرة بما أفاء الله على عباده من الغنائم، فأثرى أهلها بعد فقر، ونعموا بعد شظف العيش.

ذاق العرب حلاوة الحكم، فتطاحنت الأسر القريشية عليه، خاصة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفاز الحزب الأموي بالحكم بعد نضال عنيف، وخضع الناس لهم رغبة في عطاياهم الوافرة، وهباتهم الكثيرة أو رهبة من سيوفهم البتارة، وولاتهم الأشداء.

اقتضت سياسة الأمويين أن يقصروا أولاد قريش في الحجاز،

وأن يشغلوهم بملذات الدنيا ونعيمها، بما أفاضوه عليهم من الأموال ما ألهاهم وأبعدهم عن التدخل في الحكم وشؤونه.

اجتمع في شباب قريش الشباب والفراغ والجده، فكان الهوى والأمل المنشود، وكانت مجالس الأنس والطرب، والشعر والأدب، تعقد في وادي العقيق، وحول الغدران، وتحت النخيل.

ظهر عمر بن أبي ربيعة، وحمل لواء الغزل الإباحي العفيف، فالتف حوله فتيان قريش، وانتشر هذا في الحجاز، فترنم به الشبان، وغنت به القيان، وأنشده الكهول، واهتز له الشيوخ والزهاد، فابن عباس - وهو من نعلم علمه وزهده وقربه من رسول الله (ﷺ) - كان يسمع من ابن أبي ربيعة شعره في المسجد الحرام ويهتز له.

قال سفيان بن عيينة: أتينا مرة «مسعر بن كدام» فوجدناه يصلي، فأطال الصلاة جداً، ثم التفت إلينا مبتسماً فأنشدنا:

ألا تلك عزة أقبلت ترفع نحوي طرفاً غضيضا
تقول مرضنا فما عدتنا وكيف يعود مريض مريضا؟

فقلت: يرحمك الله بعد هذه الصلاة هذا؟! قال: نعم مرة هكذا، ومرة هكذا.

وسئل أبو السائب المخزومي: أترى أحداً لا يتمنى النسيب؟ قال: أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا.

وسمع عطاء بن أبي رباح - فقيه المدينة - رجلاً ينشد قول جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادوا وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لي: ماذا لقيت من الهوى ولقينا؟

فاضطرب اضطراباً شديداً، ودخلته أريحية، فحلف ألّا يكلم

أحداً بقية يومه إلّا بهذا الشعر، فكان كل من يأتيه سائلاً عن حلال أو حرام أو خبر من الأخبار، لا يجيبه إلّا بأن يضرب إحدى رجليه على الأخرى وينشد البيتين حتى المغرب.

وتغزل ابن أبي ربيعة ومن سار على نهجه، بكل فتاة وقعت في قلوبهم، وصار هذا الغزل واسطة للدعاية والشهرة، فرغب به الفتيات واتخذنه واسطة للتنويه بهن، حتى بذلن الرغائب في ذلك، فتغزل الشعراء ببنات قريش دون تورع أو حذر.

حجت بنت لعبد الملك بن مروان، وكانت ترغب أن يقول فيها ابن أبي ربيعة شعراً، ولكن الحجاج هدّده بالقتل إن فعل، ولما همت بالرجوع قالت: قدّمن إليكم حجّاجاً، فأقمنا أشهراً، فما استطاع الفاسق عمر ابن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتاً نلهو بها في سفرنا هذا، وبلغ عمر ذلك، فقال فيها قصيدته التي أولها:

راع الفؤاد تفرق الأحباب   يوم الرحيل فهاج لي أطرابي

ولما حملت إليها، أعطت لحاملها في كل بيت عشرة دنانير.

وحياة البذخ والترف، تستدعي اللهو والطرب، فانتشر الغناء في المدينة، حتى صارت المدينة مهد الغناء، ونبغ فيها عشرات المغنيين والمغنيات الذين برعوا في صناعتهم، وتغنوا بألحانهم، ووضعوا أصواتاً لم تكن معلومة عند العرب من قبل، واستعملوا من آلات الطرب: العود والبربط والقضيب والمزهر والدف، وكانت «جميلة» المغنية عبارة عن مدرسة فنون يتخرج منها المغنون والمغنيات.

وصار فقهاء المدينة يتساهلون في سماع الغناء، بعكس فقهاء الشام والعراق، ولم يبق في المدينة شريف ولا وضيع يتحاشى الغناء، حتى الزهاد فإنهم كانوا يسمعونه ويهتزون له.

كان حسان بن ثابت - شاعر رسول الله ﷺ - إذا سمع عزة الميلاد يبكي.

ومرّ سعيد بن المسيب بدار العاص بن وائل وجارية تقول:

تضوع مسكا بطن نعمان إن مشت　　به زينب في نسوة عطرات

فضرب برجله على الأرض، وقال: هذا ما يلذ سماعه.

وكان معبد يغني في مسجد لمالك بن السمح، وكان يسمع منه ولا ينكر عليه. وبلغ معبداً أن قتيبة بن مسلم الباهلي فتح خمس مدائن فقال: لقد غنيت بخمسة أصوات هي أشد من فتح المدائن التي فتحتها.

ومرّ بالأوقص المخزومي سكران وهو يتغنى بليل، فأشرف عليه الأوقص وقال له: يا هذا «أتيت حراماً، وأيقظت نياماً، وغنيت خطأ، خذه عني، وأصلح له الغناء».

قال رجل لابن جعدويه: يا أبا الحكم: الرجل يشدو بالأصوات ما ترى فيه؟ قال: سبحان الله! كنا إذا أتت على الرجل أربعون سنة ولا يحسن عشرة أصوات، عددناه من أهل بقيع الغرقد - يعني الموتى -.

وسمع أبو السائب المخزومي، الذلفاء - إحدى مغنيات المدينة - تغني:

لهن الوجا، لم كنا عوناً على الهوى　　ولا زال فيها ضايع وكسير

كأني سقيت السم يوم تحملوا　　وجد بهم حاد، وحان مسير

فقال أبو السائب لأبي دهبل - وكان معه - نحن والله على خطر من هذا الغناء، فنسأل الله السلامة، وأن يكفينا كل محذور. فما آمن أن يهيج بي على أمر يهتكني، وجعل يبكي وانصرف.

وسمع ابن سلمة يغني:

تجنت بال جرم، وصدت تغيظاً وقالت لتربيها مقالة عاتب

سيعلم هذا أنني بنت حرة سأمنع نفسي من ظنون كواذب

فقولي له: عنا تنح، فإننا أبيات فحش، طاهرات المناسب

فجعل أبو السائب - يزفن - يرقص ويقول: أبشر جيبي، فلا أنت أفضل من شهداء قزوين.

قال معبد: أتيت أبا السائب المخزومي - وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة - فلما رآني تجوّز وقال: ما معك من مبكيات ابن سريج؟ فقلت له:

ولهن بالبيت العتيق لبانة والبيت يعرفهن لو يتكلم

لو كان حياً قبلهن ظعائناً حيا الحطيم وجوههن وزمزم

لبثوا ثلاث مني بمنزل غبطة وهُمُ على سفر لعمرك ما هم

متجاورين بغير دار إقامة لو قد أجدّ تفرق لم يندموا

فقال لي: غنه. ثم صلّى وتجوّز إلي وقال: ما معك من مطرباته ومشجياته؟ فقلت: قوله.

لسنا نبالي حين ندرك حاجة ما بات أو ظل المطي معقلا

فقال لي: غنه، فغنيته. ثم صلّى وتجوّز وقال: ما معك من مرقصاته؟ فقلت:

فلم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج أفتن ذا هوى

فقال: كما أنت حتى أتحرم لهذا بركعتين.

واقتضت مجالسهم انتشار الظرف والملح بين سائر الطبقات.

قال عبد الملك بن الماجشون: كنا بالمدينة وإن الرجل يحدثني بالحديث من الفقه فيمله عليّ. ويذكر الخبر من الملح فاستعيده، فلا يفعل ويقول: لا أعطيك ملحي، وأهبك ظرفي وأدبي.

ويقول ابن الماجشون: أني لأسمع الكلمة المليحة، وما لي إلّا قميص واحد، فأدفعه إلى صاحبها، وأستكسي الله ﷻ.

وصار ظرف عباد الحجاز مما يضرب به المثل كان أبو حازم يوماً يرمي الجمار، فإذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها، وألهتهم بجمالها. فقال لها: يا هذه إنك بمشعر حرام، وقد فتنت الناس، وشغلتهم عن مناسكهم، فاتقي الله واستتري، قالت إني ممن عناهن الشاعر بقوله:

من اللائي لم يحججن يبغين حجة ولكن ليقتلن البريء المغفلا

فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا ندعو الله لهذه الصورة الحسنة، ألا يعذبها في النار. فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمنون، فبلغ الشعبي ذلك، فقال: ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم، أما والله لو كان من أهل العراق لقال لها: أغربي عليك لعنه الله.

وروى العتبي قال: خرجت حاجا، فلما مررت بقباء تداعى الناس ألماً وقالوا: الصقيل الصقيل، فنظرت فإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل، فلما رميناها بالحدق ألقت البرقع عن وجهها، فقلت يرحمك الله، إنا سفر وفينا أجر، فامتعينا بوجهك، فانصاعت وأنا أرى الضحك في عينيها وهي تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وقال سفيان بن عيينة: بينما أنا بالكعبة، إذ رأيت أبا السائب - وكان من العلم والدين بمكان - متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول: اللّهم ارحم العاشقين، وقوّ قلوبهم، واعطف عليهم قلوب المعشوقين بالرأفة والرحمة عليهم يا أرحم الراحمين، ثم أنشد يقول:

يا هجر كفّ عن الهوى، ودع الهوى — للعاشقين يطيب يا هجر

ماذا تريد من الذين جفونهم — قرحى، وحشو صدورهم جمر

وسوابق العبرات بين خدودهم — درر تفيض كأنها القطر

متحيرين من الهوى ألوانهم — مما تكن صدورهم - صفر

فقلت: يا أبا السائب، في مثل هذا المقام تقول هذا المقال؟ فقال: إليك عني يا أبا محمد. فوالله للدعاء لهم في مثل هذا الموضع أفضل من حجة وعمرة.

وكتب سليمان بن عبد الملك إلى عثمان بن حبان المري: أحص المخنثين، فوقعت فوق الحاء نقطة، فأخذهم وخصاهم، وفيهم (الدلال) فبلغ ذلك ابن أبي عتيق، وقد قام إلى الصلاة فقال: أو قد خصي الدلال؟ إنا لله، لقد كان يحسن أن يغني:

لمن طلل بذات الجيش أمسى دارساً خلقاً.

ثم دخل في الصلاة، فلما فرغ من قراءة أم الكتاب، قل: السلام عليكم، وكان يحسن هذا الشعر ولا يحسن ثقيله.

نرى بجانب هذا كله، حركة علمية قوية في طيبة، لا نجد لها مثيلاً في غيرها من بلدان الإسلام، لانها كانت المهبط الثاني للوحي، بها نزل التشريع، وفيها فصلت أحكامه، وبها عقدت مجالس رسول الله ﷺ ومجالس أصحابه من بعده، فكان فيها العبادلة وأحبار هذه

الأمة من الصحابة والتابعين، وصارت هذه المدينة قبلة العلماء، ومحط ركبان طلاب الفقه والتفسير والحديث والمغازي.

فإذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ هالك ما تجده فه من الحلقات العلمية المتعددة في فنائه الواسع، حلقات الصحابة الكرام يفسرون للمسلمين كتاب الله، ويشرحون لهم ما سمعوه من رسول الله، وحلقات المحدثين، يحدثون بما سمعوه أو رووه عن الرسول ﷺ، وحلقات أصحاب المغازي والسير، يقصون أحاديث اليرموك والقادسية ونهاوند وغيرها من المعارك الحاسمة، التي انتصر فيه التوحيد على الشرك، وحرر الناس من العبودية والهوان، وصاروا بنعمة الله إخواناً.

وتمتعت المرأة المسلمة - في هذا العصر - بحرية واسعة شاركت الرجل في سلمه وحربه، وسارت معه جنباً إلى جنب في ساحات الوغى، ضمدت الجروح وشجعت القلوب، وواست الجرحى، وقدمت الماء والطعام للمجاهدين، وعند اشتداد الأمر، تحمل السيف، وتلبس الدرع وتخوض غمار المعارك.

تسير جويرية بنت أبي سفيان مع أبيها إلى اليرموك، فتشارك في الحرب والضرب بنفسها، وتبعث في أبطال المسلمين المجاهدين روح الفتوة والبطولة.

وذهب خولة بنت الأزور مع أخيها إلى الجهاد في سبيل الله، فتلبس الدرع، وتتقلد سلاحها، ولما رأت مصرع أخيها، قادت زمرة من الفتيات المجاهدات، وهجمت على الأعداء، فأرجعتهم من حيث أتوا، بعد أن فتكت بهم، وأشفت غليلها.

وكانت زوجة حبيب بن مسلمة الفهري، تسير معه في أرمينية، غير مبالية ببرد الشتاء، وعوة الطرق، ومشاق الجهاد. سألت زوجها - في إحدى الليالي - أين تكون غداً؟ فقال لها: إما في خيمة طاغية القوم أو في الجنة. فيشتد القتال في الصباح، ويهجم حبيب على الأعداء، ولا يقف إلّا في خيمة الطاغية، فيجد زوجته قد سبقته إليها.

وبلغ من وثوق المرأة من نفسها - في هذا العصر - أنها كانت تجلس لخطّابها، فتناقشهم وتجادلهم، وربما فدت أحدهم بنفسها.

واشتغل بعضهن بالكتابة للخلفاء والأمراء، فكان لعبد الملك بن مروان جوار يكتبن بين يديه، كما كان للحجاج بن يوسف جارية تكتب له.

وحضرت المرأة المساجد، فصلّت مع الرجل، واستمعت إلى ما يقوله الخطباء، وربما اعترضت على أجلّ الخلفاء، فيستمع إليها، ويعمل برأيها: فبينما كان عمر بن الخطاب يوماً على المنبر يخطب على تحديد مهور النساء، قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال. فقالت له امرأة من صف النساء: ما ذاك لك! قال: لم؟ قالت: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قال عمر: امرأة أصابت، ورجل أخطأ.

وحضرت مجالس العلم والأدب، فكان منهن العالمات اللاتي تشد إليهن الرحال، ويأخذ عنهن من أجل الصحابة والتابعين.

وكانت حلقات العلم والأدب يترأسها في المدينة المنورة عقائل من قريش، فتجري فيها المساجلات الأدبية، والمناظرات الفقهية، ويحتكم إليهن الشعراء، فهي أشبه ما تكون بنوادي للعلم والأدب

والفن. ونداوتهن مفتوحة لكل قاصد، فهي أشبه ما تكون بنوادي للعلم والأدب. وممن برزن في هذا: السيدة سكينة بنت الحسين، وعقيلة بنت عقيل بن أبي طالب، وعائشة بنت طلحة، وغيرهن كثير.

سُكينة بِنت الحُسين

٤٧-١١٧هـ

بينما كان الفاروق في المسجد الجامع وحوله شيوخ المهاجرين والأنصار فإذا بشيخ مهيب يتخطى رقاب الناس حتى قام بين يدي الفاروق وحياه بتحية الخلافة، فردّ عليه الخليفة وقال له: ممن أنت؟ قال: أنا امرؤ القيس بن عدي الكلبي. فعرفه عمر، وكيف لا يعرف صاحب بكر الذي أغار عليهم في يوم (فلج) في الجاهلية فقال له عمر: ماذا تريد؟ قال: أريد الإسلام. فعرضه عليه فقبله. ودعا له برمح فعقد له على من أسلم بالشام من «قضاعة» فأدبر واللواء يهتز على رأسه، وهذا أول رجل عقد له على المسلمين بالشام ولم يصلّ ركعة واحدة، ذلك لما له من المنزلة السامية بين قومه. وأراد علي بن أبي طالب أن يزيد في شرف هذا الشيخ، فنهض إليه وأخذ بثيابه وقال له: يا عم، أنا علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وصهره، وهذان ابناي من ابنته، وقد رغبنا في صهرك، فانحكنا. سر الشيخ من هذه الساعة الميمونة التي نال فيها ما لم يكن يتوقعه، اهتدى بنور الإسلام، وتولى أمرة قضاعة بالشام، وهذا ابن عم الرسول يريد أن يشرفه بمصاهرته. فالتفت إلى الإمام علي والفرح قد ملأ قلبه، والبشر

طافح على وجهه، وقال له: قد أنكحتك يا علي المحياة بنت امرئ القيس، وأنكحتك يا حسن سلمى بنت أمرئ القيس، وأنكحتك يا حسين الرباب بنت امرئ القيس الكلبي. وكانت الرباب من خيار النساء وفضلاهن، امتازت بفصاحة لسانها، ورجاجة عقلها، فكان الحسين يحبها حباً جماً، وفيها يقول:

لعمرك إنني لأحب داراً تكون بها سُكينة والرباب
فلست لهم وإن غابوا مضيعاً حياتي أو يغيبني التراب
أحبهما وأبذل جل مالي وليس لعاتب عندي عتاب

كانت الرباب مع زوجها مثالاً للمرأة المسلمة الصالحة، شاركته في أفراحه وأحزانه، ورافقته في حله وترحاله، وشهدت معه ساحة جهاده، وناضلت معه في كفاحه، ورأت بعينها مصرعه، ورثته بقولها:

إن الذي كان نوراً يستضاء به بكربلاء قتيل، غير مدفون
سبط النبي جزاك الله صالحة عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى؟ ومن للسائلين؟ ومن يغني ويأوي إليه كل مسكين
والله لا أبتغي صهراً بصهركم حتى أغيب بين الرمل والطين

وقد برّت الرباب بقسمها، فكم تقدم إليها من شريف، وكان جوابها لكل خاطب «ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله ﷺ» وقضت حياتها حانية على ولديها عبدالله وسُكينة.

- **نشأة سُكينة**

تولت هذه الأم الصالحة تربية ابنتها سُكينة بنفسها، فأرضعتها

الفصاحة والبلاغة منذ صغرها، وأطلعتها على أشعار العرب وأخبارهم، وكثيراً ما كانت ترسلها إلى حلقات العلماء، ومجالس رواة الحديث، فتأخذ عنهم، كما كانت تقص عليها مآثر آبائها وأجدادها، فتذكرها بجدّها الأعظم منقذ العالم من الشرك، وهاديه إلى طريق الحق، وتسرد عليها أخبار جدها فتى الفتيان «حيدر» وما كان عليه من البطولة والعلم والفقه والدين. وكانت الفتاة ذكية الفؤاد، تصغي إلى هذه الأحاديث بكل شوق، وتفخر بمآثر أجدادها التي دونها كل فخر، فاهتدت بنورهم وتسنمت ذروة المجد الشامخ.

ولما بلغت سن الزواج، زوّجها أبوها من ابن عمها عبدالله بن الحسن، وبعد وفاته تقدم إليها شبان قريش يطلبون يدها، فلم يوفق في تزوجها سوى أحد الأبطال الذين يضرب بهم المثل في الشجاعة والمروءة والكرم، ألا وهو مصعب بن الزبير أمهرها مليون درهم وأهدى لأخيها أربعين ألف دينار، وزفت إليه وهي كالنار الموقدة حسناً وجمالاً. وكان الخليفة عبد الملك ينفس على مصعب هذا الزواج، وقد صرح لجلسائه فقال: «أشجع الناس مصعب بن الزبير الذي جمع في بيته بين عائشة بنت طلحة، وسُكينة بنت الحسين»:

كان مصعب يحبها حباً جماً، ويؤثرها على غيرها لعقلها وأدبها وحسبها، وقضى معها أسعد أيام حياته، ولكن لم تطل أيامه معها، دخل عليها يوم مصرعه فنزع ثيابه، ولبس غلالة، وتشوح بثوب، وأخذ سيفه لينزل ساحة الوغى. علمت سُكينة أنها الساعة الأخيرة، وأنها ستفارقه فراق الأبد، فلم تتمالك نفسها وصاحت: أعزمت يا ابن العم؟ فقال لها: ما أنا ممن يرجع عن عزيمته، فنادت واحرباه!

من للمكارم بعدك يا ابن الزبير، فرجع إليها وردعها ودمعت عيناه، وقال: أما لو علمت أن لي من قلبك هذا المكان، لكان لي ولك شأن. وما هي إلّا ساعات حتى أتاها خبر استشهاده. خرجت إلى ساحة الوغى لتنظر البطل المجندل، فطلبته بين القتلى، وعرفته بشامة كانت في خده، وقفت عليه وقالت: يرحمك الله، نعم بعل المرأة المسلمة كنت، أدركت والله ما قال عنتر:

وخليل غانية تركت مجندلاً   بالقاع، لم يعهد ولم يتلثم
فهتكت بالرمح الطويل إهابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

وقفت سُكينة طويلاً أمام هذا البطل المضرج بدمائه، وتذكرت أيام نكبتها شديد بشهيد كربلاء، ومرت أمامها المناظر المحزنة والمصائب التي توالت على آل البيت. وها هي تفجع اليوم بزوجها، كما فجعت بأهلها من قبل، ففاض الدمع من عينيها، والشعر من قلبها وقالت ترثيه:

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذي   يرى القتل إلّا ما عليه حراما
وقبلك ما خاض الحسين منية   إلى القوم حتى أوردوه حماما

ثم احتسبت واسترجعت، وأمرت بدفنه، وعادت إلى الكوفة لتلم شعثها وتلحق بأهلها، ولما أرادت السفر تجمع أهل الكوفة ليسلموا عليها. كأنهم لم يسلموا زوجها قبل أيام، ولم يسلموا أباها وأخاها قبله. وكأنهم لم يخذلوا جدها - ولكن سُكينة أجل من أن تنخدع بظاهر القول. وقد صرحت لهم بما يكنه صدرها فقالت: «لا جزاكم الله عني خيراً، ولا أخلف عليكم بخير، يعلم الله أني أبغضكم، قتلتم جدي علياً، وقتلتم أبي الحسين، وأخي علياً،

وزوجي مصعباً، فبأي وجه تلقونني؟ أتيتموني صغيرة، وأرملتوني كبيرة».

أراد الخليفة عبد الملك أن يغتنم فرصة قتل زوجها. وكان كل أمله أن يتزوجها ليحظى بالجمال والعقل والشرف. ولكن هيهات أن يجد حبه إلى قلبها سبيلاً. ولما عرض عليها أمر خطبتها قالت: «والله لا يتزوجني قاتله أبداً».

خطبها «الأصبغ بن عبد العزيز» والي مصر فكتبت إليه «أن أرض مصر وخمة» فبنى لها «مدينة الأصبغ» ولكن هذا الأمر لم يرق في عين عبد الملك فحسده وكتب إليه: «أن اختر ولاية مصر أو سُكينة». فكف عن زواجها. خطبها بعد ذلك «زيد بن عثمان بن عفان» فشرطت عليه: أن لا يغيرها، ولا يمنعها شيئاً تريده، ولا يخالفها في أمر تريده، وأن يكون أمر خروجها بيدها، فرضي كما أرادت، ولكن صاحبنا هذا كان بخيلاً فلم يطق صبراً على ما تفيضه سُكينة على الشعراء والفقهاء وحلقات الأدب، وما كانت تنفقه في قصرها، وفي غداوتها ومنتزهاتها، فغلب عليه بخله وتخلى عنها.

آثرت سُكينة بعد هذا أن تعيش منفردة مع جواريها بمكان ناء عن المدينة وضوضائها تتمتع بهدوء الطبيعة وجمالها، فلم تجد مكاناً أجمل من وادي العقيق الفتان. فباعت مالها بالزوراء وعمرت لها قصراً فخماً في هذا الوادي الجميل. وكلما فاض الوادي كانت تخرج إلى محل السيل يحف بها جواريها. وفي أحد الأيام جلست على حافته تمتع نظرها بما يحف بها من الأزهار والحشائش وأشجار الأثيل. وكانت السماء صافية، والنسيم عليلاً والناس منتشرون حول الوادي يمتعون أنفسهم بهذا الجمال، فالتفتت

إلى جواريها وقالت لهن: «والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من الزوراء».

● ندوتها

لئن ظهرت صالات فتيات الطبقة الأرستقراطية في الغرب حوالي القرن الثامن عشر، فقد كانت هذه الصالة معروفة في الأندلس قبل ذلك بقرون. فكانت صالة «ولّادة بنت المستكفي» مجمع العلماء والشعراء وأهل الفن والأدب. وإن هذه الصالات كانت منتشرة في المدينة المنورة منذ القرن **الأول** الهجري، والذي نراه أن أول ظهروها في الشرق كان في المدينة المنورة، وأن أول من سنّ هذا هي السيدة سُكينة، ثم تبعها بعد ذلك غيرها من سيدات قريش. أمتازت صالة سُكينة بفخامتها وجلالتها، ذلك لأنها صالة سُكينة، وهي من نعرف أدبها الرفيع وعلمها وظرفها ومروءتها وميلها إلى تشجيع كل نابغ والأخذ بيد كل سائر، تهديهم الطريق، وتذلل لهم العقبات، وترشدهم إلى مواضع الضعف في علمهم وأدبهم وفنهم، وفي بيتها غرف للانتظار، وأخرى للضيافة، يتزاحم فيها الشعراء والأدباء والفقهاء ورواة الحديث والمغنون. وقلما كان يمر بالمدينة أمير أو شريف أو نابغ أو عالم إلّا ويعرج على هذه الصالة عش الأدباء، وكعبة العلماء والفقهاء.

وكم اجتمع الشعراء ببابها، والناس حولهم يطلبون الإذن منها لينشدوها أشعارهم، أملاً في صلتها أو طلباً في إبداء رأيها. وكم انتظر الشعراء ببابها أياماً حتى يؤذن لهم والشيء المعتاد عند أهل المدينة هو أن يترددوا إلى صالتها ليشاهدوا مباراة الشعراء فيها، والحلقات العلمية التي تعقد، أو مجالس رواة الحديث التي تدور.

وكانت السيدة سُكينة تشارك في هذا كله من وراء حجاب بحيث تراهم ولا يرونها يحف بها جواريها اللاتي يروين الأحاديث ويحفظن الأشعار ويبلغن رأي سيدتهن.

اجتمع الفرزدق وجرير وجميل وكثير ونصيب في موسم الحج، فقال بعضهم لبعض: لا تجتمعوا في مثل هذه الساعة، فهلموا نفعل شيئاً نذكر به في الزمان. فقال جرير: هل لكم أن نسلم على السيدة سُكينة بنت الحسين، فلعلها تكون سبباً لما أردتم؟ قالوا: نعم الرأي، وانطلقوا فاستأذنوا فخرجت جارية، وأعلمت مولاتها بقدومهم فأذنت لهم، فقصدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم. وأخرجت لهم جارية وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث، فقالت: أيكم الفرزدق؟ قال: أنا قالت: أأنت القائل؟:

هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انقضى باز أقتم الريش كاسره

قال: نعم، قالت: ما وفقت ولا أصبت. أما آيست من تعريضك بعودة صدق محمودة؟ ما دعاك إلى إفشاء سرك وسرها؟ أفلا سترت على نفسك وعليها؟ خذ هذه الألف درهم وانصرف. ثم دخلت وخرجت وقالت: أيكم جرير؟ قال جرير: هأنذا، قالت: أأنت القائل؟:

طرقتك صائدة القلوب، وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

قال جرير: أنا قلته. قالت: فما أحسنت ولا أجملت ولا صنعت صنع الحر الكريم حين رددتها، وقد تجشمت إليك هول الليل، أنت رجل ضعيف، وأي وقت أحلى للزيارة من الطروق. أفلا أخذت بيدها، ورحبت بها، وقلت لها: «نفسي فداؤك فادخلي بسلام»؟ خذ

هذه الألفين والحق بأهلك ثم انصرفت إلى مولاتها، ثم عادت فقالت: «أيكم القائل؟»:

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النشء الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتظار

قال نصيب: أنا قلته، قالت: أغزلت وأحسنت ولا كرمت، لأنك صبوت إلى الصغار، وتركت الناهضات بأحمالهن. خذ هذه السبعمائة درهم فاستعن بها. ثم انصرفت إلى مولاتها، ثم عادت فقالت: «أيكم القائل؟»:

وأعجبني يا عز منك خلائق كرام، إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المنى حين يطمع
وأنك لا تدري كريماً مطلته أيشتد إن لاقاك أو يتضرع

قال كثير: أنا قلته. قالت: أغزلت فأحسنت. خذ هذه الثمانمائة درهم فاستعن بها، ثم انصرفت إلى مولاتها، ثم خرجت فقالت: أيكم القائل؟:

لكل حديث بينهن هشاشة وكل قتيل بينهن شهيد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأي جهاد غيرهن أريد
وأفضل أيامي وأفضل مشهدي إذا هيج بي يوماً وهنّ قعود

قال جميل: أنا قلته، قالت: أغزلت وأحسنت وكرمت وعففت. ادخل، فلما دخل سلّم، فقالت له سُكينة: «أنت الذي جعلت قتيلنا شهيداً، وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يوم تذب عنا وتدافع، ولم تتعدّ ذلك إلى قبيح؟ خذ هذه الألف درهم، وأبسط لنا العذر، أنت أشعرهم».

وإن هذا التبصر بالشعر وفنونه، والمآخذ الدقيقة على الشعراء، لم يكن يتهيأ لغير السيدة سُكينة. فقد كان لها فوق ذكائها المتوقد من عوامل الوراثة عن والديها، ما ساعدها على ذلك. فجدّها سيد فصحاء العرب بعد رسول الله ﷺ. وأمها نشأت في البادية، وتلقت الفصاحة عن شعرائها وبلغائها، وهي شاعرة رقيقة، ناهيك عن محيطها الذي نشأت به، هو المدينة المنورة عش الأدباء والشعراء، ومنشأ الغزل الإباحي العفيف - كل هذه العوامل أثرت في السيدة سُكينة وجعلتها تتفوق على بنات قريش، في بصرها الثاقب، ورأيها الصائب، وأدبها الرفيع.

كثيراً ما نجد رواة الشعراء يختصمون، وكل يفضل صاحبه، فإذا جدالٍ وإذا خصام، وينشدون حكماً صائباً يقدر أن يوفق في مثل هذا الموقف الحرج، فيقضي لفحل على فحل، دون خوف أو حذر أو تعصب. ومن لهم في مثل هذا الموقف؟ وأنى لهم ذلك الحكم الواسع الاطلاع على أشعار العرب وأنسابها وأخبارها ليوفق في حكمه؟ هذا ما لا يتهيأ لغير «السيدة سُكينة».

اجتمع بالمدينة رواة الشعراء نصيب وجميل والأحوص، فأدلى كل منهم أن صاحبه أشعر، وتراضوا يأن يحتكموا إلى «السيدة سُكينة بنت الحسين» فقصدوا صالتها، وعرضوا عليها الأمر فأذنت لهم. فدخلوا. قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول؟:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت   فوا حزناً من ذا يهيم بها بعدي

ألا قبح الله صاحبك، وقبح شعره. كأنه يتمنى لها من يتعشقها بعده، ألا قال:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت «فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي»

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك يقول؟:

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليلاً إذا نجم المحيا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قال: نعم. قالت: ألا قال؟

بات بأنعم ليلة وألذها «حتى إذا وضح الصباح تعانقا»

ثم قالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول؟

فيا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة، لا يخفى علي كلامها

قال نعم، قالت: «رحم الله صاحبك. إنه كان صادقاً شعره، وكان جميلاً كاسمه» فحكمت له، ورضي الجميع بالحكم.

دخل كثيرة عزة على السيدة سُكينة بنت الحسين، فقالت له يا بن أبي جمعة. أخبرني عن قولك في عزة:

وما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثمانها وعرارها

بأطيب من أردان عزة عنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

ويحك هل هي زنجية منتنة الأبطين، توقد بالمندل الرطب نارها إلّا طاب ريحها؟ ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

شعرها:

ولسُكينة شعر جميل ينم عما في نفسها من حزن وأسى ومن ذلك قولها:

لا تعذليه فهم قاطع طرقه يُعينه بدموع ذرّف غدقه

إن الحسين غداة الطف يرى	ريب المنون فما إن يخطئ الحدقه
بكف شر عباد الله كلهم	نسل البغايا وجيش المرّق الفسقه
الويل حل بكم إلّا بمن لحقه	صيرتموه لأرماح العدا درقه
يا عين فاحتفلي طول الحياة دماً	لا تبك ولداً ولا أهلاً ولا رفقه
لكن على ابن رسول الله فانسكبي	قيحاً ودمعاً وفي أثريهما العلقه

• مزاحها وتهكمها

انتهى الفرزدق من حجته، ويمم شطر المدينة ليسلم على السيدة سُكينة، أملاً في صلتها ورغبة في ثنائها، ليغيظ بهذا خصمه «جرير» والفرزدق من الحزب العلوي، طرد وسجن واضطهد بسبب تشيعه لهم، ولم يكتم هذا الحب الصادق لآل بيت رسول الله ﷺ حتى أمام الخليفة هشام. ولكن هذا لم يخلصه من السيدة سُكينة وتهكمها به. ولما مثل في صالتها، سألته من أشعر الناس؟ وهي تعلم مكانته من الشعراء، فهو أفخر الشعراء الأمويين، وأمدحهم وأمتنهم أسلوباً، وأجزلهم لفظاً - قال: أنا، قالت: كذبت. أشعر منك الذي يقول:

بنفسي من تجنبه عزيز	عليَّ ومن زيارته لمام
وَمن أمسى وأصبح لا أراه	ويطرقني إذا هجع النيام

ولا شيء يغيض الفرزدق أكثر من تفضيل قرنه وخصمه الألد «جرير» عليه. بهت الفرزدق وأسقط في يده. وماذا يصنع مع سُكينة التي تريد أن تلعب بعقل هذا الشيخ؟ قال لها: والله لئن أذنت لي لأسمعتك أحسن منه. قالت: لا أحب فاخرج عني. خرج الفرزدق خائباً يتعثر في أذياله، ويخشى أن يشيع هذا الخبر، ويسمعه جرير،

ويتخذه حجة عليه. وفي اليوم الثاني عزم على أن يعيد الكرة لعل الله يشرح صدر سُكينة وتمنّ عليه بكلمة ثناء تجبر بها كسره. ولما مثل في صالتها، قالت له: من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت. أشعر منك صاحبك حيث يقول:

لولا الحياء لهاج لي استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار

كانت إذا هجع الضجيع فراشها ... كتم الحديث، وعفت الأسرار

فقال لها: «والله لئن أذنت لي لأسمعتك أحسن منه». فأمرت به فأخرج. فضاقت عليه الأرض بما رحبت، فلا يدري ماذا يعمل وبمن يلوذ. ولكنه لم يقطع أمله من صلتها وثنائها. فقصدها في اليوم الثالث، ولما مثل في صالتها، سألته من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت. صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إن العيون التي في طرفها حور ... قتلتنا ثم لم يحيينا قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

علم الفرزدق بأن شعر جرير قد وقع في قلبها لرقته وسلاسته وخلوه من الفحش والخبث، فهو يمثل النفس الطاهرة الطيبة. عندئذ لجأ إلى التلطف معها والتوسل إليها، فقال لها: «يا بنت رسول الله ﷺ إن لي عليك حقاً عظيماً، خرجت إليك من مكة إرادة السلام عليك، فكان جزائي منك تكذيبي ومنعي من أن أسمعك» وعرض لها بكلامه أن تهبه جارية وضيئة من جواريها أعجبته. فضحكت سُكينة وأمرت له بالجارية فخرج بها. وأمرت الحواري إن يدفقن في أقفائهما وقالت: «يا فرزدق أحسن صحبتها فإني آثرتك بها».

وأحاديثها مع عروة بن أذينة كثيرة، وهو من فقهاء المدينة

ومحدثيها، أخذ عنه الإمام مالك. كان من الأتقياء ولكن قلبه لم يخلص من الهوى. كان يحب، وكان يعشق، ولكن كان يستر حبه ويكتم هواه، ويخفي أمره - ومهما حاول المرء كتم هواه، فلا بد أن يظهر يوماً على لسانه.

بينما كانت سُكينة بوادي العقيق، رأت هذا الشيخ، فمالت إليه بموكبها، ووقفت عليه وقالت له: يا أبا عامر، أنت الذي تزعم أن لك مروءة، وأن غزلك من وراء عفة، وأنك تقي؟! قال: نعم. قالت: أفأنت تقول:

قالت وأبثثتها وجدي أبحت به؟ قد كنت عندي تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي؟ فقلت لها: غطى هواك، وما ألقي على بصري

وأنت القائل:

إذا وجدت أوار الحب في كبدي أقبلت نحو سقاء القوم أتبردُ
هبني بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد؟

قال: نعم. قالت: من حولي من الجواري حرائر، إن كان هذا خرج من قلب سليم.

رثى عروة بن أذينة أخاه بكراً بقصيدة يقول فيها.

سرى همي وهمّ المرء يسري وغار النجم إلّا قيد فتر
أراقب في المجرة كل نجم تعرض في المجرة كيف يجري
بحزن ما أزال له مديماً كأن القلب أسعر حر جمر
على بكر أخي ولي حميداً وأي العيش يصلح بعد بكر؟

قالت سُكينة: ومن أخوه بكر؟ أليس الدحداح الأسود القصير

الذي كان يمر بنا صباحاً مساء؟ قالوا: نعم. قالت: كل العيش والله يصلح ويحسن بعد بكر، حتى الخبز والملح.

ومن تهكمها، أنها كانت في مأتم فيه بنت لعثمان بن عفان. فقالت بنت عثمان مفتخرة: «أنا بنت الشهيد» سكتت سُكينة فقال المؤذن: «أشهد أن محمداً رسول الله». التفتت إلى بنت عثمان وقالت لها: «هذا أبي أو أبوك» فبهتت العثمانية وقالت: «لا أفخر عليكم أبداً».

وكانت تسلك طريق الدعابة والمزاح في حياتها. ونوادرها كثيرة. ومن ذلك: لسعتها دبيرة. فقالت لها أمها: ما لك يا سيدتي؟ فضحكت وقالت: «لسعتني دُبيرة، مثل الأُبيرة، أرجعتني قُطيرة».

وبعثت مرة إلى صاحب الشرطة، أنه دخل علينا رجل شامي فابعث إلينا بالشرطة. فركب معهم وأتى إلى باب سُكينة، فأمرت ففتح له. ثم أمرت جارية من جواريها فأخرجت إليه برغوثاً فقالت له: «هذا الشامي الذي شكوناه» فانصرفوا يضحكون.

ولعل أجمل هزلها كان مع أشعب خادمها ومضحكها. وكم لاقى هذا المخنث من تنفيذ أوامرها الأمرين: تارة تأمر جواريها أن يطأن بطنه وطأ شديداً تكاد تخرج أمعاؤه منها، أو تأمرهن أن يخنقنه أو يسحبنه ويلقى خارج الدار، أو تأمره أن يقلد أصوات الحيوانات، فيموء كالهرة أو يهر كالكلب.

غضبت عليه يوماً، فأمرت حجاماً ليحلق لحيته، فقال له الحجام: أنفخ في شدقيك حتى أتمكن منك - وأشعب حتى في مثل هذه الحالة يحاول أن يضحك سيدته - قال للحجام: «أمرتك أن تعلمني الزمر أو أن تحلق لحيتي؟!» فضحكت وعفت عنه.

وغضبت عليه مرة فأمرت أن يتخذ بيت من عود ويوضع فيه بيض وتبن، وأدخلت أشعب به، وحلفت بحق جدها أن لا يخرج أشعب - وكلما دخل زائر إلى دار سُكينة، كان أشعب يقرقر مثل الدجاجة - حتى فقس البيض كله فراريج. وأمرت أن تربى الفراخ بدارها. وكانت تنسبهن إليه وتقول «بنات أشعب».

• ميلها للفنون

وللسيدة سُكينة شعور رقيق وحب للجمال - وهل يحب الجمال إلّا الجميل - هي جميلة في صورتها، جميلة في صوتها، جميلة في نفسها وجميلة في تهكمها ونقدها، ففاض هذا الجمال من روحها الطيبة الطاهرة، وغمر صالتها وجعلها معرضاً للفن والجمال.

وما الغناء إلّا مظهر من مظاهر الجمال الروحي الذي تجيش به الأنفس فتهتز له القلوب فتردده ألحاناً.

كان يعجبها الغناء وتهتز له، وكان المغنون يقصدون صالتها ويعرضون فيها ألحانهم الجديدة وأصواتهم المبتكرة. وكان «الغريض» مولاها يلازم هذه الصالة «ويشرف على مرتاديها من أهل الفن، اعتنت السيدة سُكينة بتربيته وأسلمته إلى المغنين، وما زال يسمو أمره حتى بلغ في الغناء ما بلغ».

وهذا «حنين» المغني العراقي المشهور، يشد الرحال إلى المدينة المنورة تلبية لدعوة المغنين فيها. ولما كان على مرحلة منها ازدحم الناس لمشاهدته - فلم ير يوماً كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ - وأمل كل سري وشريف أن يحل حنين ضيفاً عنده، ولكن كل شرف دون شرف السيدة سُكينة، ومن له من الشرف والمروءة مثل ما لها؟

عرج حنين على دارها ليسلم عليها ويستأذنها في الغناء عندها قبل كل أحد. فأذنت له بالدخول ثم أذنت للناس إذناً عاماً، وأقبل أهل المدينة كعادتهم إلى صالتها ليسمعوا أنغام حنين. غصت الدار وصعدوا فوق السطح، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا ثم ابتدر حنين يغني:

هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب

فازدحم الناس على السطح وسقط الرواق على من تحته فسلموا جميعاً إلّا «حنين» فإنه مات تحت الهدم.

على أن المصائب التي اعتورتها منذ صغرها لم تترك قلبها خالياً من الحزن والأسى. وكيف يخلو قلبها من الحزن، وقد شهدت أعظم النكبات. فلذا كانت تأنس بالنوح وتخفف به آلامها وأحزانها. ومن أحق بالنوح منها؟ وهل النوح إلّا ترديد أنغام الحزن والأسى؟!

كانت تبعث بالأشعار المحزنة إلى المغنين ليصوغوا ألحاناً يناح بها. كما كانت تختار من ذوي الأصوات المشجية وتسلمهم إلى المغنين ليعلمونهم النوح. وقد بعثت مملوكها عبد الملك إلى ابن سريج وأمرته أن يعلمه النياحة. ولما توفي عمها «أبو القاسم محمد ابن الحنفية» ناح عليه نوحاً في الغاية من الجودة.

• تأثيرها في المجتمع

ولم تقتصر شهرتها بين أهل عصرها في العلم والأدب والفن، بل كان لها تأثير شديد في كل ما تفعله. فلم تظهر بزي إلّا وانتشر بين فتيات الطبقة الأرستقراطية، وتعداهن إلى بقية الطبقات. ذلك لأن السيدة سُكينة أول من ابتكره وظهرت به. وكانت تصفف شعرها تصفيفاً لم ير أحسن منه، وصارت الجمة «السكينية» هي المتبعة في

تصفيف الشعر. ولم يقتصر هذا التقليد على النساء فقط بل أن فتيات قريش أخذوا ينسقون شعورهم على مثالها. وكان عمر بن عبد العزيز إذى رأى رجلاً يصفف جمته «السكينية» جلده وأمر بحلق شعر رأسه.

وأما تنسيق صالتها وما يجد فيها من رياش وأثاث وطيب ورياحين، فكان هذا حديث فتيات قريش، فما من فتاة إلّا وتزور هذه الصالة لتنظر ما استجد بها مما أيدعته قريحة سُكينة، لتقلدها في ذلك ولسُكينة منزلة رفيعة عند كافة طبقات المجتمع - حتى الخلفاء أنفسهم - فإنهم كانوا يعترفون بقوة شخصيتها، ورجاحة عقلها وسمو نفسها.

نشزت سُكينة على زوجها عبدالله بن عثمان - وأمه رملة بنت الزبير - فدخلت رملة على عبد الملك بن مروان - وهو عند خالد ابن يزيد بن معاوية - فقالت: يا أمير المؤمنين لولا أن أدبر أمرنا ما كان لنا رغبة فيمن لا يرغب فينا، سُكينة بنت الحسين عليه السلام قد نشزت على ابني، قال لها عبد الملك: يا رملة إنها سُكينة.

كانت تجيء يوم الجمعة فتقوم بإزاء منبر ابن مطير - وهو خالد ابن عبد الملك بن الحارث بن الحكم - إذا صعد المنبر، فإذا شتم علياً شتمته هي وجواريها.

كانت كريمة تعطي عطاء من لا يخشى الفقر. كانت يوماً ترمي الجمار فسقطت من يدها الحصاة السابعة، فترفعت عن أخذها من الأرض فرمت بخاتمها.

وصلاتها للشعراء والعلماء وأهل الأدب والفن معلومة، وأخبارها مستفيضة في كتب الأدب.

فالسيدة سُكينة هي سيدة نساء عصرها على الإطلاق. كانت أحسنهن عقلاً، وأظرفهن وأعلمهن، وأعلاهن مقاماً، وأرفعهن أدباً، يسعى إلى صالتها أصحاب العلم وأرباب الفن، يستمعون إلى محاضرتها أو يلتمسون صلتها. كما كانت تطرح عليهم الأسئلة وتجادلهم بما يقولون وتنتقد آرائهم ولا تخشى في الحق لومة لائم، ولهذا ترى قاصديها يحسبون لها حساباً.

وهكذا تألق هذا النجم في سماء المدينة المنورة. وظل يهتدى به حتى سنة ١١٧هـ.

● وفاتها

وفي صباح يوم شديد الحر فاضت روحها وانتقلت إلى جوار ربها. خرج النعش يتهادى بين الجموع المحتشدة والقلوب الخاشعة، والعيون الدامعة. ولكنها «حتى على الموت لا تخلو من الحسد» فإن أمير المدينة خالد بن عبد الملك أمر أن يؤخروا الصلاة عليها حتى يحضر، وجلس الناس حولها حتى العشاء، ولم يحضر خالد وغلبهم النعاس فأوقدوا حولها عوداً بأربعمائة دينار، وصلوا عليها جماعات جماعات. وفي صباح يوم الثاني دفنوها ودفنوا معها العلم والأدب والفن.

أقفرت الدار من سُكينة فلا شعراء ينشدون، ولا علماً يتجادلون، ولا رواة يحدثون، ولا أدباء يحتكمون.

أضحت خلاء، وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

عُلية بنت المهدي
١٦٠-٢١٠هـ

عاشت عُلية بنت المهدي في أوج الدولة العباسية، ولدت في خلافة المنصور، وتقلبت في نعيم أبيها المهدي، وشاهدت بغداد وهي أعظم مدينة في العالم: دار السلام، وعاصمة الإسلام، مقر الخلافة، وكعبة الأدب، ودار العلم والحكمة جنة الأرض، وغرة البلاد، ومجمع المحاسن والطيبات، ومدينة الظرائف واللطائف. فهي حاضرة الدنيا، وما عداها بادية. وقد سأل الإمام الشافعي رجلاً: هل رأيت بغداد؟ قال: لا. قال: ما رأيت الدنيا ولا ناس. هذه هي بغداد عاصمة الرشيد، والتي مثل في قصورها وحدائقها وملاعبها حوادث ألف ليلة وليلة، التي كانت وما زالت مضرب الأمثال.

أما أمها: فهي مكنونة، من جواري المدينة المشهورات بالحسن، والجمال، والغناء والدلال، والشعر والأدب، ولها صوت رخيم فاجتمع فيها جمال الخلق، وجمال الصنعة. وافتتن بها الناس، وبلغ أمرها المهدي وكان يرغب بها، ولكنه يخشى غضب أبيه المنصور المعروف بجده. فاشتراها سراً بمائة ألف درهم، ولما دخلت القصر، غلبته على أمره، ملكت قلبه، فمال إليها دون بقية

جواريه، وفضلها حتى على «الخيزران» فكانت الخيزران تقول: «والله ما ملك امرأة أغلظ عليّ منها».

تولّت أمها تربيتها بنفسها، فحببت إليها الجمال منذ صغرها، فنشأت مطبوعة على حب الفنون الجميلة ، أمرت بتعليمها الكتابة فأتقنتها واختارت لها الكتب الأدبية فدرستها، وسلمتها إلى المؤدبين فأحسنوا تأديبها، وأحضرت لها الفقهاء والعلماء فأخذت عنهم، وكانت تريضها على قول الشعر منذ نعومة أظفارها، فصارت من الشاعرات اللاتي يضرب المثل بشعرهن. كما كانت تطلعها على ألحان العرب وأصواتهم وتدربها على آلات الطرب، فكانت بلبل بني العباس وهزارهم.

ولما كمل شبابها زوّجها أبوها من «موسى بن عيسى الهاشمي» وهو أحد أبطال بني العباس شجاعة ودهاء. تولى إمارات الولايات المهمة: كمصر، والعراق، والشام، واليمن.

ورثت عُلية من هذا الأمير أموالاً طائلة، وعقارات في الولايات التي تقلدها، فاتخذت لها قصراً فخماً يضاهي قصور الخلفاء في السعة والجمال، يقع هذا القصر على ضفة دجلة، بالقرب من قصر زبيدة «دار القرار» وقصر الرشيد «دار الخلد» ولقصرها شرف مطلة على دجلة، قد زينت شاطئه بما تحويه من النقوش المتقنة والتصاوير الجميلة، والألوان الزاهية، كما كان لقصرها شرف أخرى تطل على الميدان - ميدان دار الخلافة - والقصر يضم آلاف الجواري والخدم والحراس، وبلغ من أمر القصر أن أتخذه الخليفة المعتصم داراً له بعد وفاتها.

في الشرفات المطلة على النهر كانت تجلس (عُلية) تصعد أمام السمّريات والحراقات والزبازب إلى دار القرار، وتنحدر إلى دار

الخلد مقر عاهل الإسلام، أمير المؤمنين الرشيد، أعظم خليفة عرفه الشرق والغرب، فيها القواد والأمراء والعلماء وأهل الفن، ويمر أمامها أهل بغداد على اختلاف طبقاتهم، وترى وفود الملوك والعواهل يتقدمون بذات وخضوع، حاملين هداياهم، معرضين ولاءهم لأمير المؤمنين.

• عُلية والرشيد

كان الرشيد مشغوفاً بأخته، وقلما يصبر عنها، وإذا زارته فإنه كان يجلسها معه على السرير، وذلك لما يراه من عقلها وأدبها وظرفها، ورقة شعرها، وجمال غنائها، وحسن توقيعها، وكثيراً ما كان يزورها في قصرها ويطلب منها أن تقيم له الحفلات الغنائية، ويقضي ليله عندها يصغي إلى أصوات الحور العين، يرددن في جو قصرها ما أبدعته قريحة عُلية من الشعر، وما صاغته من الألحان.

وفي إحدى ليالي الربيع، وقد نشر البدر أشعته الفضية على بغداد وجناتها، وساد المدينة الهدوء، وأمير المؤمنين يتململ على فراشه تململ السليم، يطلب النوم فلا يجده، وتوالت عليه الهواجس والأفكار فضاق صدره، بل ضاق به دار الخلد، فخرج إلى حدائقه الغناء، يتنقل من محل إلى آخر لينفس عن نفسه ويزيل همه، ولكن السرور لم يجد إلى قلبه سبيلاً، كأنه لم يشعر بما حوله من الأزهار والرياحين، وما يحف به من الحور العين، فترك القصر واتجه إلى قصر أخته «عُلية» فهرع الخدم إلى الأميرة يعلمونها بقدوم أمير المؤمنين، حيث أسرعت الأخت إلى أخيها، وهي تعلم أن مجيئه في مثل هذه الساعة ومن غير ميعاد، لم يكن إلّا لأمر أصابه، أو همّ أقلقه،

وعُلية أدرى الناس بمعالجة أخيها - كيف لا؟ وهي أميرة الشعر والطرب.

جلس الرشيد في الشرفة المطلة على دجلة، وأمرت عُلية جواريها أن يلبسن أنواع الثياب الموشية، ورصعن رؤوسهن بالعصائب الحريرية، المكللة بالدرر والجواهر، وأخذن معازفهن، وأندفعت علهي تغني أبياتاً من نظمها وتلحينها، والجواري يرددن الغناء:

فـرّجـوا كـربـي قـلـيـلاً   فـلـقـد صـرت نـحـيـلا
افـعـلـوا فـي أمـر مـشـغـو   ف بـكـم فـعـلاً جـمـيـلا

فالشعر من نظمها، واللحن من وضعها، والصوت من قلبها، وما خرج من القلب حلّ في القلب، فتغلغلت في أعماق قلب الرشيد ودافعت الهموم، فسر بذلك وابتسم، فابتسمت الدنيا لعُلية، إذ إنها فرجت عن أخيها، واستزادها فغنت من نظمها:

أوقـعـت قـلـبـي فـي الـهـوى   ونـجـوت مـنـه سـالـمـه
وبـدأتـنـي بـالـوصـل   ثـم قـطـعـت وصـلـي ظـالـمـه
تـوبـي فـإنـك عـالـمـه   أو لا فـإنـك آثـمـه

فطرب الرشيد طرباً شديداً، ثم استدناها منه، وأخذ يتحدث معها عما كان به من الهم، وأمرت عُلية إحدى جواريها فغنت من أصوات سيدتها:

قل لذي الطرة والأصداغ والوجه المليح
ولمن أشعل نار الحب في قلب قريح
ما صحيح عملت عيناك فيه بصحيح

وغنت جارية ثانية:

البس الماء المداما وأسقني حتى أناما
وافض جودك في النا س تكن فيهم إماما
لعن الله أخا البخل وإن صلّى وصاما

وبقي الرشيد عند أخته يستزيدها من الأصوات، فتغنيه هي وجواريها حتى أذن المؤذن، يدعو الناس إلى ذكر الله وإلى الصلاة، فلبى الرشيد داعي الله، ونهضت أخته تودعه، يحف بها الجواري والبشر طافح على وجه الخليفة، والسرور قد ملأ قلبه.

وكانت عُلية كثيراً ما تباغت أمير المؤمنين في الأزياء المبتكرة، والألحان التي تضعها، أو الشعر الذي تجود به قريحتها. وفي أحد الأيام كتبت إليه تستزيره كعادتها، وما كاد يتوسط حديقة القصر، حتى رأى أخته تستقبله هي وجواريها بأزياء جديدة مبتكرة، وهن يرددن صوتاً من نظم أميرتهم وتلحينها:

تفديك أختك قد حبيت بنعمة لسنا نعد لها الزمان عديلا
إلّا الخلود وذاك قربك سيدي لا زال قربك والبقاء طويلا
وحمدت ربي في إجابة دعوتي ورأيت حمدي - عند ذاك - قليلا

وكان كثيراً ما يستصحبها معه في سفراته ومنتزهاته، لتشاركه في أفراحه، وتخفف عنه عناء السفر في أنغامها وأشعارها، خرج مرة إلى الرقة البلدة الجميلة التي كان الرشيد كثيراً ما يرتادها لجمالها، وطيب هوائها، وكثرة أزهارها وأثمارها، فأحب أن تشاركه أخته بهذا الجمال الفتان، فكتب إلى خال المهدي يأمره أن يصحبها معه إليه. وفي طريقها استيقظت صباح يوم على أصوات النواعير، فصغت إلى أنينها يتردد في

ذلك الفضاء الواسع يشارك كل مفؤود، ويسلي كل محزون، ويخفف أتعاب البائس، ويحرك أشجان الهائم، ويذكر الإلف بإلفه، والحبيب بحبيبه، والغريب بوطنه،ولم تكن عُلية قد سمعت هذا الصوت السحري الجميل، فحرك أشجانها وهيج قلبها، وذكرها ببغداد وما فيها، ففاض الشعر من قلبها، وأندفعت تغني:

أشرب وغن على صوت النواعير   ما كنت أعرفها لولا ابن منصور

لولا الرجاء لمن أملّت رؤيته   ما جزت بغداد في خوف وتغرير

وصلت الرقة بسلامة، وشاركت أخاها الأنس والطرب، ثم رجعت إلى دار السلام.

ولما سافر الرشيد إلى الري أمر عُلية أن ترافقه، فرافقته كرهاً، ولم يطلب لها الخروج من قصرها جنة الدنيا ونعيمها، إلى بلاد لا تعرفها وأناس لا تألفهم، ولما وصل الموكب المرج، جلست عُلية مع الرشيد وكان قلبها معلقاً ببغداد. فأظهرت لأخيها شوقها في شعرها فأنشدته:

ومغترب بالمرج يبكي لشجوه   وقد غاب عنه المسعدون عن الحب

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه   تنشق يستشفي برائحة الركب

فأمر الرشيد أن تعود إلى دار أنسها ومرحها - بغداد -.

وكان الناس يتقدمون إليها لتساعدهم في قضاء حوائجهم عند الرشيد، شفاعتها عنده مقبولة، وكلمتها لا ترد، وقاصدها لا يخيب وكيف يردّها وهي تخاطبه بلسان الشوق، وتعبر له بأعذب الألحان.

أما تعلق «زبيدة» زوجة الرشيد بالأميرة عُلية، فكان لا يقل عن تعلق الرشيد، تشكو إليها كل همّ يصيبها، وتطلعها على سرّها،

وتستشيرها وتسترشد برأيها الصائب - كما كانت تبث لها شكواها إذا ما رأت جفوة أو إعراضاً من أمير المؤمنين.

أهدي للرشيد جارية في غاية الحسن والجمال، وعلى جانب من العلم والأدب، فأعجب الرشيد بها، وقدّمها على جواريه، شق الأمر على زبيدة، فقد أفلت «هرون» من يدها، وظهر لها من نافستها وتقدمت عليها - وداء الضرائر معروف، فلا يغيظ المرأة أحد بقدر ضرتها «فالضرة مرة ولو كانت جرة» ولكن ما العمل والجارية قد احتلت مكان زبيدة، وملأ حبا قلب هرون؟

كتبت زبيدة إلى عُلية بنت عمها تستزيرها. ولما حضرت عندها عرضت عليها أمرها، وشكت ما تقاسيه من هذه الجارية، وطلبت معونتها، فقالت عُلية: «لا يهولنك هذا الأمر، والله لأردنه إليك».

نظمت عليه أبياتاً وصاغت فيها لحناً، وجمعت جواريها وجواري زبيدة عندها، وأمرتهن أن يلبسن أفخر ثيابهن، ويأخذن أجمل حلاهن، وكللت رؤوسهن بالأزهار والرياحين، وعطرتهن بالطيب والغالية، وطرحت عليهن اللحن حتى أتقنّه انتشر الجواري بين أشجار جنائن الخلد وأزهارها.ولما كان وقت العصر، خرج الرشيد للصلاة في مسجد قصر الخلافة، وما كاد يتوسط حديقة القصر حتى باغته الجواري كأنهن حوريات أفلتن من الجنة، بأيديهن المعازف، يتقدمهن عُلية وزبيدة، وهن يرددن بصوت واحد:

منفصل عني وما قلبي عنه منفصل

يا قاطعي قل لي: لمن نويت غيري أن تصل

فطرب الرشيد غاية الطرب، وتقدم إلى زبيدة وأخذ بيدها واعتذر إليها، ونادى: يا مسرور لا تبقين في بيت المال درهماً إلّا نثرته على الجواري، فيقال أنه نثر عليهن ستة ملايين درهم، ولم يشاهد الرشيد في يوم مسروراً أكثر من هذا اليوم، عادت المياه إلى مجاريها، وكفى الله زبيدة داء الضرائر بفضل عُلية، فسبحان محول القلوب.

قلما تصفو الدنيا الغدارة لأحد، فهي لا تلبث أن تبدل الصفو بالكدر، والسرور بالقهر، والفرح بالحزن، والهناء بالعزاء تضحك اليوم وتبكي غداً، وتعطي هذا وتحرم ذاك.

وبينما عُلية في شرف قصرها، تطل على القاصدين لدار الخلافة تترقب عودة أخيها الرشيد من «طوس» رأت حركة منكرة في دار الخلد، واضطراباً في القصر، بل في بغداد أجمع. فقد اجتمع الأمراء والولاة والقضاة وأرباب الحكم على اختلاف طبقاتهم بثياب العزاء، فتفرست فيهم فإذا وجوههم عانية، وعيونهم الدامعة، وألسنتهم خرس، لا تقدر أن تعبر عن هول المصيبة التي حلت بأمير المؤمنين، والرزء الذي أصاب العرب والمسلمين: إن أمير المؤمنين الرشيد قد قضى نحبه في طوس.

اسودت الدنيا بعين عُلية، وضاق بها القصر الواسع، فقد فجعت بأخيها الرشيد، أعظم خليفة أظهر للعالم عظمة العرب والإسلام، وأنفق في سبيل العلم والعمران ما يعجز عنه غيره - وكانت عاقبة هذا العاهل الذي خضع له ملوك الأرض، ودانت له الأمم، وانقادت إليه الشعوب صاغرة، أن أدلي في لحده، وأهيل عليه التراب بعيداً عن عاصمة ملكه، فقد ضن عليه الزمن أن يدفن في دار السلام، المدينة التي جعلها كعبة العلم والأدب والفن، بل عزّ على

بغداد أن ترى الرشيد ميتاً يقبر في لحودها بعد أن زانها حياً وجعلها سيدة البلاد.

رفعت المعازف، وبحت الحناجر، وساد الهدوء والخشوع في قصر عُلية، فلا يسمع إلّا صوت المؤذن وقراءة القرآن، ولا ترى عُلية إلا في محرابها تصلي، أو بكتابها تقرأ، أو تندب أخاها، أو تنتقل في خمائل قصرها، تطلب العزلة لتخفف عنها أحزانها.

عزّ على الأمين أن يرى أميرة الشعر والطرب، وهزار بني العباس على هذه الحالة المؤلمة، فكان يتردد إلى زيارتها كثيراً، ويدعوها إلى قصره.

وعُلية اليوم قد ذهب نور شبابها واشتعل الشيب في رأسها، وتغيرت نبرات صوتها، ولكن نفسها لم تشب، بل بقيت نفساً شاعرة تحب الجمال، وتسمع الصوت الجميل، وتعشق كل جميل، وما زالت هذه الزهرة تذبل حتى ذوت وفارقت الدنيا سنة ٢١٠هـ وقد مضى عليها خمسون ربيعاً.

وفي صبيحة يوم، رأى أهل بغداد أمير المؤمنين يسير خاشعاً إمام نعش، يحف به الأمراء والوزراء والعلماء، فحفّ به أهل بغداد. وقف النعش أمام مقابر قريش، وصلى عليه الخليفة، وأدليت جثة عُلية درة بني العباس في القبر.

• غناؤها

ورثت هذا الفن الجميل عن أمها مكنونة، التي غرست في نفسها الطرب منذ نعومة أظفارها، فشبت مطبوعة على التلحين والغناء والعزف، ولم تكن عُلية من المقلدات لغيرها في هذه الصنعة، بل

أن أشهر المغنين كانوا يسعون إليها، ويأخذون عنها وقد وضعت ثلاثة وسبعين صوتاً، فكانت أجمل الأصوات التي يتغنى بها في العصر العباسي. ذلك لأن الأبيات التي غنتها كانت صادرة عن روحها الشاعرة، وهي أعلم الناس بمعناها، فكانت من أبدع الناس في مغناها. ولها بعض الأصوات كان يتغني بها الكبير والصغير، والسوقة والأمير، والعالم والجاهل وانتشرت بين جميع طبقات الشعب، ومنها الصوت التالي، وهو من نظم «وضاح اليمن» في محبوبته «أم البنين»:

حتام نكتم حزننا وآلاماً؟ وعلام نستبقي الدموع علاما؟

إن الذي بي قد تفاقم واعتلى ونما وزارد وأورث الأسقاما

قد أصبحت أم البنين مريضة أخشى بما نقلوا عليّ حماما

وإن شهرة أخيها إبراهيم في الغناء كانت مستمدة منها، لأنها كانت كلما وضعت صوتاً، استدعت إبراهيم وألقته عليه، حتى يتقنه ثم تأمره أن يعلم جواريه وجواريها، فكان إبراهيم يتولى تعليم الجواري.

وأحدثت عُلية ميلاً كبيراً إلى الفنون الجميلة بين أعضاء الأسرة المالكة، كانت هي زعيمة الحركة، وأخذ عنها أخوها إبراهيم، وفاق كثيراً من أهل عصره، حتى قالوا: «إنه لم ير في جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عُلية، وكانت تقدم عليه» كما كان أخوها يعقوب زامراً مشهوراً، وأختاها تضربان على العود ضرباً فائقاً.

وكان قصرها أشبه بمدرسة فنون جميلة يتردد في جوّ ما أبدعته

قريحة عُلية من الشعر، وما وضعته من الألحان، يزينها عزف إبراهيم وأختيه، ومزمار يعقوب، وترديد الجواري. وكانت في أوقات فراغها تستدعي أخاها تطارحه الألحان أو تأمر الجواري أن يعرضن أمامها ما أخذته عنه.

وكان الرشيد إذا نظم أبياتاً، يبعث بها إلى بلبل بني العباس، فتصوغ لها لحناً وتغنيه بها، أرسل إليها مرة هذين البيتين من نظمه:

يا ربة المنزل بالفرك وربة السلطان والملك

تحرجي بالله من قتلنا لسنا من الديلم والترك

فصاغت فيها لحناً جميلاً. ولما حضر عندها الرشيد، أخذت تغنيه، هي وإبراهيم أخوها يضرب بالعود، ويعقوب يزمر، والجواري يرددن.

علمت عُلية يوماً أن الرشيد قد غضب عليها بوشاية حاسد، وهي من أعلم الناس بمعالجته. فنظمت ثلاثة أبيات، وعملت لحناً فيها، وألقتها على جواري الرشيد، وأمرتهن أن يغنين بها في أول مجلس يجلسه فغنين:

لو كان يمنع حسن العقل صاحبه من أن يكون له ذنب إلى أحد

كانت عُلية أولى الناس كلهم من أن تكافأ بسوء آخر الأبد

ما أعجب الشيء ترجوه فتحرمه؟ قد كنت أحسب أني قد ملأت يدي

فطرب الرشيد طرباً شديداً، وسأل الجواري عن القصة، فأخبرنه بها، فبعث إليها، فحضرت. فقبّل رأسها وسألها أن تغنيه هي، فأعادته عليه، فبكي وقال لها: «لا جرم إني لا أغضب أبداً عليك ما عشت».

وبلغها يوماً أن الرشيد وأخاه منصور يتحدثان في جنة دار الخلد

فاستدعت جاريتها «خلوب» المغنية وأمرتها أن تذهب إلى الرشيد وتغنيه هذا الصوت، وأن يضرب على غنائها بعود:

حياكما الله خليلي ... إن ميتاً كنت وإن حيا
إن قلتما خيراً، فخير لكم ... أو قلتما غياً فلا غيا

أما تأثير غنائها فكان عظيماً، ذلك أنها كانت تمتاز برخامة صوتها وحسن توقيعها، وتفننها وإبداعها في كل ما تضع من الأصوات.

دخل يوماً «إسماعيل بن الهادي» على «المأمون» فسمع غناء أذهله فقال له المأمون: ما لك؟ قال: «قد سمعت ما أذهلني، وكنت أكذب أن أرغن الروم يقتل طرباً، وقد صدقت الآن بذلك» فقال له المأمون ألا تدري ما هذا؟ قال: لا والله. قال: «هذه عمتك عُلية، تلقي على عمك ابراهيم صوتاً».

● شعرها

نشأت عُلية منذ نعومة أظفارها مطبوعة على قول الشعر، فشبت بارعة في قرضه، وكانت آية في الفصاحة والبلاغة، وقد ذكر «ابن النديم»: «إن لها ديوان شعر قد رآه» ولكن أين هذا الديوان؟ لا شك أن أيدي البلى أبلته كما أودت بصاحبته. يقول الصولي: «إني لا أعرف لخلفاء بني العباس بنتاً مثلها، على أن لها شعراً حسناً جداً، وصنعة الخلد في الغناء حسنة كثيرة» وما وصلنا من أشعارها يدل على أنها صادرة عن قلب شاعر، ونفس صافية، وقريحة فياضة، ورح نشأت على حب الفنون الجميلة، فكان كل ما صدر عنها جميلاً، ولهذا كان شعرها مما يغنى به في صدر الدولة العباسية، لرقته وانسجامه ووقعه في النفس.

ومما يدل على انطباعها على قول الشعر، أنها كانت تعبر في شعرها عن الكثير من أغراضها في المراسلات الخصوصية في كل ما تقول وتفعل.

وعُلية تقول الشعر لنفسها، تعبر به عما يخالجها من الأهواء والنزعات، وما يجيش بصدرها من حب وإجلال لأهلها، وما توحيه الطبيعة من مناظرها الخلابة، أو ما تحدثه فيها الحضارة من التنسيق والترتيب، وهي أصدق شاعرة عبرت في شعرها عما تعانيه المرأة في ذلك الوقت من التضييق والإرهاق، وما كانت تقاسيه من لواعج الشوق والهيام في سجنها الضيق، وأغلالها المادية، وما كانت تولده هذه من انفجار عظيم تردد بغداد صداه. فالكثيرات هن البائسات اللاتي كانت أجسادهن مكبلة في القصور، وأرواحهن تتمنى القبور:

بت قبل الصباح إن بت إلّا ... في إزار على فراش حرير
أو يحل ذاك غلق قصور ... كم قتيل من الهوى في القصور؟

وقالت:

أمسي فلا أرجو صباحاً، وإن ... أصبحت حياً، قلت لا أمسي
لا يستوي - والله - هذا كما ... لا يستوي في قدمها خمسي

وقولها:

لا زلت منذ دخلت القصر في كرب ... أهذي بذكرك صباً لست أنساك
لا تحسبني وإن حجاب قصركم ... سدوا الحجاب وحالوا دون رؤياك
إني تغيرت عما كنت يا سكنى ... أيام كنت - إذا ما شئت - ألقاك

ونجد في شعرها ما كان يدور بين ربات الخدور من لغات العيون

والرموز والإشارات، تعبر عما تكنه الصدور من الحب والشوق، ولا تقدر الألسن أن تبوح به:

تكاتبنا برمز في الحضور وإيماء يلوح بلا سطور
سوى مقل تخبر ما عناها بكف الغيب في ورق السطور

أما أشعارها الكثيرة، فهي في العشق والهوى والحب وأسبابه ووصف حالة المحب، وأتت بما لم يتهيأ لغيرها من الشاعرات، بل أن الشعراء أخذوا يقتفون أثرها، ويسلكون سبيلها في تعليلاتهم. فهي تقول:

ليس خطب الهوى بخطب يسير لا ينبئك عنه مثل خبير
ليس خطب الهوى يدبر بالرأ ي ولا بالقياس والتدبير
إنما الحب والهوى خطرات محدثات الأمور بعد الأمور

وتقول أيضاً:

ما أقصر اسم الحب يا ويح ذا الحب وأطول بلواه على العاشق الصب
يمر به لفظ اللسان مُسهلاً ويرمى بمن قاساه في هائر صعب

وقولها تذكر ظلم الحبيب وحال المحب:

بُني الحب على الجور فلو أنصف المحبوب فيه لسمج
ليس يستحسن في عرف الهوى عاشق يعرف تأليف الحجج
وقليل الحب صرف خالص لك خير من كثير قد مزج

وقولها في مقاومة الهوى وتغلبه عليها:

لقد كنت أنهى النفس جهدي لعلها إذا ما استطعت الهجر عنك تطيب
وغالبتها حتى عصتني إلى الذي تريد، ولي نفس بذاك غلوب

وقولها:

كأني إذا ألزمتني الذنب ليس لي لسان، بلى لو كان غيرك ألسن
تغيب فأخلو بالهموم، ونلتقي خلاساً فترميني لذلك أعين

وقولها:

ألفت الهوى حتى تشبث بي الهوى وأردفني منه على مركب صعب
كتابي لا يقرى، وما بي لا يُرى ونار الهوى شوقاً توقد في قلبي

ولعُلية غزل رقيق يستهوي القلوب، وأشعارها في هذا الباب كثيرة، منها قولها:

أتاني عنك سعيك بي فسبى أليس جرى بفيك اسمي فحسبي؟
وقولي ما بدا لك أن تقولي فماذا كله إلّا لحبي
فما زال المحب ينال سباً وهجراً ناعماً، ومليح عتب
فصاراك الرجوع إلى مرادي فما ترجين من تعذيب قلبي
تشاهدت الظنون عليك عندي وعلم الغيب فيها عند ربي

ومن غزلها:

جاءني عاذلي بوجه مشيح لام في حب ذات وجه مليح
قلت: والله لا أطعتك فيها، هي روحي، فكيف أترك روحي
ظبية تسكن القباب، وترعى مرتعاً غير ذي آراك وشيح

وقولها أيضاً:

ألا يا نفس ويحك لا تتوقي إلى من ليس بالبر الشفيق
ألا يا نفس أنت جنيت هذا فذوقي، ثم ذوقي، ثم ذوقي

وإذا لامها أهلها في حب من تهواه من صواحبها قالت:

أهلي سلوا ربكم العافية فقد دهتني بعدكم داهيه
فارقني بعدكم سيدي فعبرتي منهلة جاريه
ما لي أرى الأبصار بي جافية ماتنثني مني إلى ناحيه
ما ينظر الناس إلى المبتلى وإنما الناس مع العافيه

وعُلية إذا ما مدحت إنما تمدح الرشيد وابنه الأمين، وهي بهذا تجزل اللفظ، وتحكم المعنى، وتوفي الممدوح حقه، فهي لا تمدح إلّا نفسها، فتعبر عما يكنه صدرها لأخيها من الحب والاحترام، وما يملأ قلبها من الفخر بآبائها وأجدادها العظام، وإذا زارها الرشيد استقبلته بقولها:

قل للإمام ابن الإما م مقال ذي النصح المصيب
لولا قدومك ما انجلى عنا الجليل من الخطوب

ثم تنثني فتفخر بالأمين سليل بني العباس، ابن زبيدة والرشيد فتقول:

يا ابن الخلائف والجحاجحة العلى والأكرمين مناسباً وأصولا
والأعظمين إذا العظام تنافسوا بالمكرمات وحصّلوا تحصيلا
والقائدين إلى العزيز بأرضه حتى يذل، عساكراً وخيولا

وإذا شعرت بجفوة من الرشيد كتبت إليه:

ما لك رقي أنت مسرور وبالذي تهواه محبور
أوحشتني يا نور عيني، فمن يؤنسني غيرك يا نور
أنت على الأعداء يا سيدي مظفر الآراء منصور

حجت مرة وعرجت في طريقها على مدينة (طيزناباذ) المدينة المشهورة بخمورها، فغضب الرشيد عليها، فكتبت إليه معتذرة:

أي ذنب أذنبته أي ذنب؟ أي ذنب لولا مخافة ربي
بمقامي بطيزناباذ يوماً بعده ليلة، على غير شرب

وإذا زارها الرشيد فرحت به، وخاطبته من نظمها وتوقيعها:

تفديك أختك قد حبيت بنعمة لسنا نعد لها الزمان عديلا
إلّا الخلود، وذاك قربك سيدي لا زال قربك والبقاء طويلا
وحمدت ربي في إجابة دعوتي ورأيت حمدي عند ذاك قليلا

وإذا علمت أن الرشيد قد استزار أختيها، ولم يكتب لها كتبت إليه تعاتبه:

ما لي نسيت وقد نودي بأصحابي وكنت والذكر عندي رائح غادِ
أنا الذي لا أطيق الدهر فرقتكم فرق لي بأبي من طول إبعاد

وإذا ودعت أخاها الرشيد، فإنها تودعه بشعرها وقلبها فتقول

لا حزن إلّا دون حزن نالني يوم الفراق وقد غدوت مودعا
فإذا الأحبة قد تولت عيرهم وبقيت فرداً، والهاً متوجعا

وإذا طالت عليها أيام رمضان، وهي مشغولة بصيامها وقيامها تذكرت أيام لهوها ومرحها وحفلاتها التي كانت تقيمها في قصرها، وحنّت إلى ذلك بشعرها:

طالت عليّ ليالي الصوم واتصلت حتى لقد خلتها زادت على العدد
شوقاً إلى مجلس يزهو بساكنه أعيذه بجلال الواحد الصمد

وإذا ما رأت تقصيراً من «طغيان» خادمتها، أو خيانة من وكيلها

«سباع» فإنها كانت تهجوها هجواً لاذعاً مقذعاً، لا يخلو من الفحش.

ومن أهاجيها الجميلة، أنها حضرت حفلة زفاف، ورأت مخنثاً قد تزيا بزي النساء، وخضب يديه، وكحل عينيه، وحمر شفتيه، وهو ينقر بالدف ويغني ويرقص، والنساء قد حففن به، يصفقن له، ويضحكن عليه، وهو مسرور بفعله فقالت:

ومخنث شهد الزفاف، وقبله غنى الجواري حاسراً ومنقبا
لبس الدلال، وقام ينقر دفّه نقراً أقرّ به العيون وأطربا
إن النساء رأينه فعشقنه فشكون شدة ما بهن فأكذبا

وإذا كتبت إلى صديقتها ولم يأت الجواب، كتبت إليها تعاتبها:

يا خلتي وصفيتي وعذابي ما لي كتبت فلم تردي جوابي
خنت المواثق؟ أم لقيت حواسداً يهوين هجري؟ أم مللت عتابي؟

وإذا جلست في حفلاتها ولم تجد من تحب وتهوى، شعرت بألم الفراق، ولوعة الاشتياق، زفرت من قلبها:

يا موري الزند قد أعيت قوادحه إقبس إذا شئت من قلبي بمقباس
ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم إذا نظرت ولم أبصرك في الناس

وإذا طال غياب الرشيد عن عاصمته بغداد، وخلت حفلات عُلية منه، شعرت بفراغ واسع ونقص في سرورها فلا يكمل إلّا به كتبت إليه:

هرون يا سؤلي وقيت الردى قلبي بعتب منك مشغول
ما زلت منذ خلفتني في عمى كأنني في الناس مخبول

ولعُلية قلب ضعيف لا يحتمل القهر والهجر، فكانت تستعين بدموعها في تخفيف أحزانها وأشجانها، وتروح بها عن نفسها فتقول:

بليت بقلب ضعيف القوى وعين تضر ولا تنفع
إذا ما ذكرت الهوى والمنى تحدر من جفنها أربع

وكنت تراها تنتقل في حدائق قصرها الواسعة، تمتع نظرها بأزهارها وأشجارها، وتصغي إلى ترديد أطيارها، وخرير مياهها وحفيف أشجارها، فينعكس هذا في نفسها فتردده شعراً. تقف على الزهور فتشمها وتناجيها، وعلى الساقية تردد معها الألحان، وأمام الحمام تشاركه السجع، ومع الهزار تشاركه التغريد. ومن أوصافها الجميلة، أنها رأت ريحانة تميل مع الريح، فمال قلبها إليها فاقتطفتها، وقالت:

كأنها من طيبها في يدي تشم في المحضر أو في المغيب
ريحانة طينتها عنبر تسقى مع الراح بماء مشوب
عروقها من ذا، وتسقى بذا ممزوجة يا صاح طيباً بطيب
تلك التي هام فؤادي بها ما إن لدائي غيرها من طبيب

هذا هو الشعر الصادر عن شعور خالص، لا أثر فيه للتكلف ولا للمبالغة والتهويل. ولها أبيات معانيها مبتكرة، وتجري مجرى الأمثال، يتناقلها الناس عصراً بعد عصر. منها:

رأيت الناس، من ألقى عليهم نفسه هانا
فزد غباً، تزد حباً وإن جرعت أحزانا

وقولها:

ما ينظر الناس إلى المبتلى   وإنما الناس مع العافيه

وقولها:

الحب أول ما يكون جهالة   فإذا تمكن، صار شغلاً شاغلا

● **عفافها**

كانت عُلية مثالاً صالحاً، وقدوة حسنة للمرأة المسلمة التي تعبد ربها حق عبادته، ولا تنسى نصيبها من الدنيا، ذات صيانة وأدب شاركت الشعب في لهوه ومرحه وأناشيده. وترفعت عن مفاسده ورذائله. قال أبو الفرج الأصفهاني: «كانت عليه حسنة الدين، وكانت لا تغني ولا تشرب النبيذ إلّا إذا كانت معتزلة الصالة، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب، فلا تلتذ بشيء غير قول الشعر».

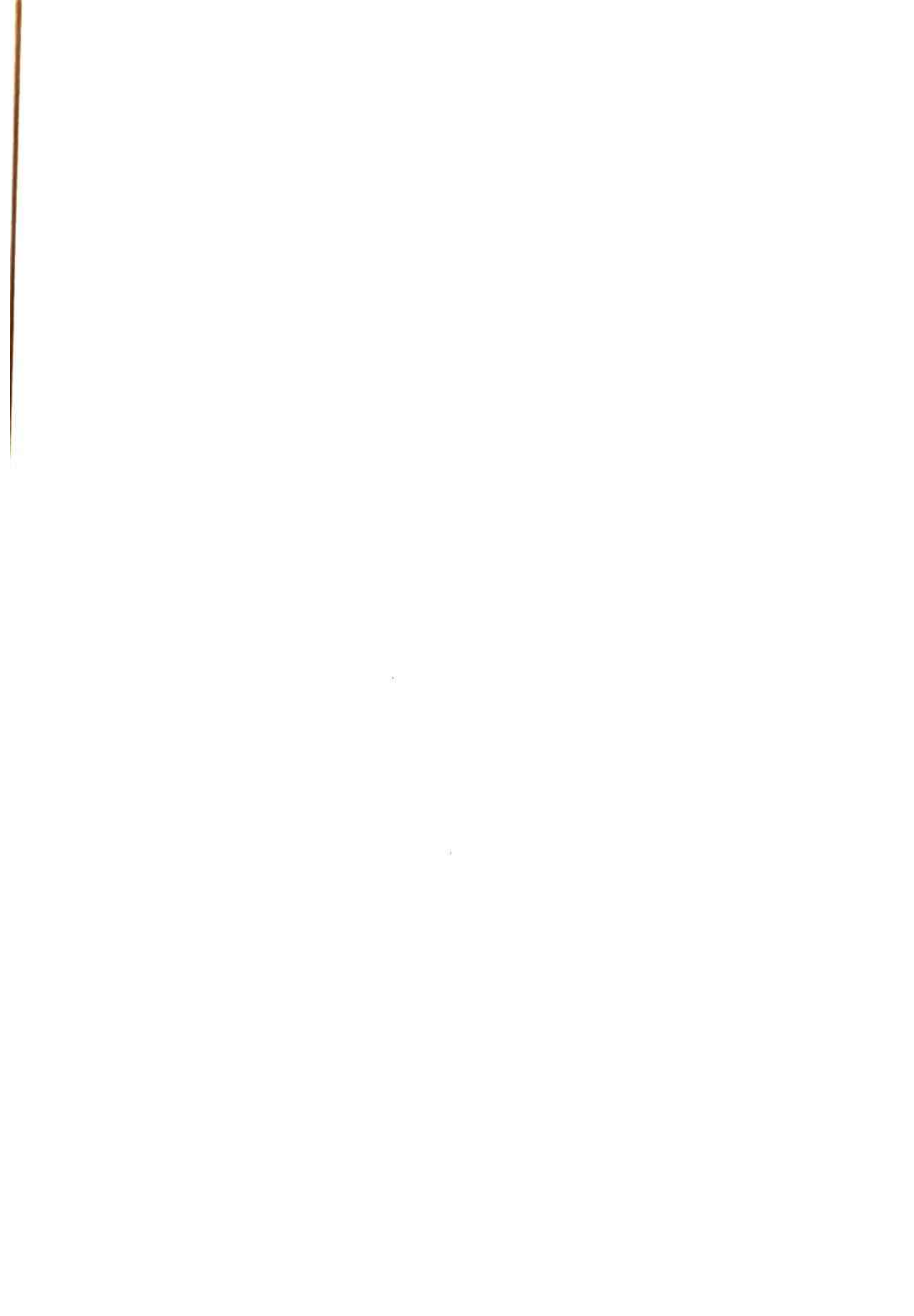
فعُلية كانت ترفه عن نفسها بطرق وأساليب تبتكرها هي، تدفع بها سأم البطالة والعزلة، فتمرح وتلهو وتلعب من غير أن تفقد شيئاً من كرامتها، أو أن تتعدى حدود ربها. وهي تقول: «ما حرم الله شيئاً إلّا وقد جعل فيما حلل عوضاً منه، فبأي شيء يحتج عاصيه، والمنتهك لحرمته» فهي ترى أن أسباب اللهو المباح كثيرة. ولكن المرأة الضيقة الصدر، القليلة العقل، تتبع كل ناعق، وتجيب كل داع، فتقع في شرك التهتك والعصيان.

ومما يدل على ثقتها بنفسها، واعتدادها بشرفها، وطهارة أخلاقها، أنها كانت كثيراً ما تقول: «اللهم لا تغفر لي حراماً أتيته، ولا عزماً على حرام إن كنت عزمته، وما استغرقني لهو قط، إلّا ذكرت

سببي من رسول الله ﷺ، فقصرت عنه، وإن الله ليعلم أني ما كذبت قط، ولا وعدت وعداً فأخلفته».

هذه هي أخلاق درة بني العباس الفريدة، التي أرضت ربها بعبادة وخففت عن نفسها بمرحها العفيف الطاهر.

وهذا ما يجب أن تكون عليه المرأة الصالحة التي تتبع كتاب وسنة رسوله ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾. «إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه».



زُبيدة بنت جَعفر

١٤٧-٢١٦هـ

في سنة ١٤٥هـ كثرت الخوارج في نواحي الموصل، وأخذت تغير على أطرافها. حتى وصلت البلد، فولى أبو جعفر المنصور ابنه «جعفر الأكبر» الموصل وجعل على شرطته «حرب بن عبدالله الرويدي صاحب الحربية ببغداد» ومع ألفا فارس، يقيم على روابط الموصل.

بنى جعفر له قصراً فخماً على التل المشرف على قطائع بني وائل في الربض الأسفل من الموصل، وسكنه مع زوجته (سلسل) فجمعت مع الخيزران، زوجة أخيه الهادي، وكان هذا القصر يشرف على المرج والأحراش التي تحف بنهر دجلة - ومحله أحد متنزهات الموصل إلى يومنا هذا.

في هذا القصر الجميل ولدت «أمة العزيز» وكانت المولودة بضة، تتمتع بصحة تامة ونشاط، سُر بها جدها أبو جعفر المنصور فكان يرقصها ويقول لها: «يا زبدة أنت زُبيدة» فغلب هذا أسمها، وعرفت به.

بعد ولادتها بخمس سنين توفى أبوها، فكفلها جدها المنصور وكان يعنى بها عناية خاصة، كلفاً بها، يحبها حباً جماً، ويقدمها على

سائر بنات الأسرة المالكة، فأشرف بنفسه على تعليمها وتهذيبها، فبعد أن قرأت القرآن الكريم، أحضر لها من علّمها الكتابة، وأوقفها على أمور دينها، وحفظها الأخبار، وروت الحديث والشعر والسير، وشبت كلفة بالشعر والأدب، فصيحة اللسان، بليغة البيان، حتى كانت تزين غرفها بالسجف الموشاة بالآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والأقوال المأثورة، والنظم الرائع.

وفي سنة ١٥٦هـ قاربت زُبيدة سن العشرين، فكمل عقلها، واستوى جسمها، فكانت وسيمة الطلعة، طويلة القد، بضة الجسم، بيضاء اللون، ذات عينين براقتين، وفم صغير، يزينها عقل راجح، وفكر صائب، فجمعت الجمال والكمال، كل هذا جعل أمراء البيت المالك يتطلعون إليها، وكل منهم يأمل أن تكون شريكة حياته.

أما هي فكانت تؤثر ابن عمها «هرون» بطل الخلافة العباسية، الذي دوّخ الروم وثل قلاعهم، وقاد بطارقتهم أسرى إلى والده المهدي، يعرضون عليه ولاءهم وخضوعهم، ويؤدون إليه جزية ملكهم عن يد وهم صاغرون.

وكان هرون قد ترعرع مع ابنة عمه زُبيدة، نشآ معاً، فشبا متآلفين، فأحبها وأحبته، ولما يبلغا الحلم.

أعلن المهدي في بلاطه أنه عزم على تزويج ابنه هرون، من ابنة أخيه «أمة العزيز زُبيدة بنت جعفر الأكبر» فاستقبل الناس هذا النبأ بالسرور والابتهاج، والدعاء لهما بالخير والسعادة، وتسابق رجال الدولة إلى إعداد الهدايا التي تليق بهرون وزُبيدة، من ماس ولآلئ، وجواهر وأكاليل، وتحف نادرة، وأحجار كريمة، وثياب موشاة، وجوارٍ ومغنيات، وأدوات زينة إلى غير ذلك.

وقد وصف الشابشتي ما أعد المهدي لهذا الزواج أحسن وصف فقال: «وكانت الدعوات المشهورة في الإسلام ثلاثاً لم يكن مثلها: ومنها عرس زُبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر، فإن المهدي زوج ابنه الرشيد بأم جعفر ابنة أخيه، فاستعد لها ما لم يستعد لامرأة قبلها، من الآلة وصناديق الجواهر، والحلي والتيجان، وقباب الفضة والذهب، والطيب والكسوة، وأعطاها بدنة عبدة ابنة عبد الله بن يزيد بن معاوية - امرأة هشام - ولم ير في الإسلام مثلها، ومثل الحب الذي كان فيها، وكان في ظهرها وصدرها خطان، ياقوت أحمر، وباقيها من الدر الكبار الذي ليس مثله، ودخل بها الرشيد في المحرم سنة خمس وستين ومائة، في قصره المعروف «بالخلو» وحشر الناس من الآفاق وفرق فيهم من الأموال أمر عظيم، فكانت الدنانير تجعل في جامات فضة، والدراهم في جامات ذهب، ونوافج المسك وجماجم العنبر في بواطي زجاج، ويفرق ذلك على الناس، وتخلع عليهم خلع الوشي المنسوجة، وأوقد بين يديه في تلك الليلة شمع العنبر في أتوار الذهب، وأحضر نساء بني هاشم، وكان يدفع إلى كل واحدة منهن كيس فيه دنانير، وكيس فيه دراهم، وصينية كبيرة فضة فيها طيب، ويخلع عليها خلعة وشي مثقل. فلم ير في الإسلام مثلها. وبلغت النفقة في هذا العرس من بيت مال الخاصة - سوى ما أنفقه الرشيد من ماله - خمسين ألف ألف درهم.

وقد أسهب المؤرخون في ذكر حفلة العرس، فذكروا أنهم فرشوا قصر الخلد بالبسط والطنافس الحريرية المنسوجة بالذهب، والمرصعة باللآلئ، ولما دخلت غرفتها قدمت إليها الهدايا، والتحف النادرة، وطرح عليها من اللؤلؤ والمجوهرات ما أثقل

سيرها في مشيها، فعلوا هذا حباً بالرشيد، وإكراماً لزُبيدة درة بني العباس.

شغف الرشيد بزُبيدة شغفاً شديداً، فلم يكن له أمنية في الدنيا سوى إرضاء أم جعفر ابنة عمه وشريكة حياته، وكان يؤثرها على الخلافة، لما يراه من عقلها وأدبها - ولما ضايقه أخوه الهادي لأخذ البيعة منه لابنه، على أن يقطعه نهري «الهنيء والمريء» ولا يمسه بسوء، رضي هرون بذلك وقال: «إذا نزلت على الهنيء والمريء، وخلوت بابنة عمي - يعني أم جعفر - فما أريد شيئاً» ولولا يحيى البرمكي لتنازل عن ولاية العهد لابن الهادي.

فكانت عنده بالمنزلة التي لا يتقدم أحد عليها وربما استشارها في بعض أمور الدولة، فيجد منها رأياً صائباً.

وبعد زواجها بأربع سنين، ولدت محمد الأمين، وكان آية في الحسن والجمال حتى سمي «يوسف زمانه» وقيل إن جمال ولد الخلافة انتهى إليه وإلى أخيه أبي عيسى.

وضرب المثل بحسن وجه الأمين، وغناء إبراهيم، وبلاغة جعفر ابن يحيى، قال أبو الحسن الموسوس يمدح الخليفة الطائع لله من قصيدة:

وإذا أمير المؤمنين أضاف لي ... أملي نزلت على الجواد المفضل

رأي الرشيد، وهيبة المنصور، في ... حسن الأمين، ونغمة التوكل

وقال عبدالله المعلس من قصيدة:

راحة تخجل السحاب، ووجه ... يتلألأ إشراقه كالصباح

ما جمال الأمين؟ ما كرم المهدي؟ ... ما أريحية السفاح؟

وقد أقر الله عين السيدة زُبيدة بهذا المولود، فكان جل أمانيها في الحياة، وكان بنو هشام ينظرون إليه بعين التجلة والإكرام، ويقدمونه على سائر أولادهم، فهو هاشمي الأبوين أمه أم جعفر زُبيدة، وأبوه هرون الرشيد.

وأقبل الشعراء على تهنئة هرون الرشيد وزُبيدة به، ومن ذلك قول مروان بن أبي حفصة يخاطب زُبيدة وينوه بمقام الأمين:

لله دركِ يا عقيلة جعفر ماذا ولدت من الندى والسؤدد؟

إن الخلافة قد تبيّن نورها للناظرين على جبين محمد

إني لأعلم أنه لخليفة إن بيعة عقدت، وإن لم تعقد

فأمر له هرون الرشيد بثلاثة آلاف درهم، وأمرت زُبيدة أن يحشى فوه جوهراً، فكانت قيمة الجوهر عشرة آلاف درهم.

بعد ولادة الأمين بسنة واحدة، قضى الهادي نحبه، فأنعم على هرون الرشيد بالخلافة، فجاءت الدنيا منقادة إلى زُبيدة، وأسبغ الله نعمه عليها: زوجها هرون الرشيد خليفة الله في أرضه، تخضع له الأمم في مشارق الأرض ومغاربها، وتنصب الأموال في خزائنه، وزُبيدة تتحكم في الدولة، تتصرف في خزائنها كما تشاء، فأنفقت منها على الخير والإحسان شيئاً كثيراً.

عكفت السيدة زُبيدة على تربية ابنها لنفسها، وحرصت على تعليمه وتهذيبه، فأحضرت لتأديبه أشهر علماء زمانها، كالكسائي وأحمر وغيرهما، وكانت تبذل لهم الجرايات الكبيرة، وتغدق عليهم هباتها وهداياها، وتشرف على تعليمه وتأديبه بنفسها.

أرسلت إلى الكسائي - مؤدبه - تقول له: «إن السيدة تقرأ عليك

السلام، وتقول لك: حاجتي أن ترفق بابني محمد، فإنه عترة فؤادي، وقرة عيني، وأنا أرق عليه رقة شديدة» فقال الكسائي: إن محمداً مرشح للخلافة - بعد أبيه - ولا يجوز التقصير في تأديبه، فأقرته على هذا وكافأته.

رأت الأحمر يتشدد على الأمين في التأديب، ويمنعه من اللعب في ساعات فراغه، وكان الأمين يضجر منه، ولا يقبل على الدرس، فأرسلت إليه «خالصة» جاريتها تعلمه خطأه في طريقته هذه وأن يجعل له وقتاً للراحة واللعب والاستجمام، لكي يقبل على الدرس بنشاط وشوق. أما التضييق ومنعه من اللعب واللهو في أوقات فراغه، فإن هذا يبغض إليه الدرس ويميت قلبه، ويجعله ينفر من التعليم.

ولما شب محمد الأمين وأخوه عبدالله المأمون، أخذا يتنافسان في جلب رضا الرشيد، وكانت كفة محمد الأمين هي الراجحة، فأمه زُبيدة ملكة قلب الرشيد، يؤيده بنو هاشم، ويؤازرهم الحزب العربي الذي كان ناقماً على الفرس واستئثارهم بالأمر، حتى الرشيد نفسه، فإنه كان يقدم الأمين، وقال فيه:

ولي ولد لم أعصه منذ ولدته ... ولا شك في بري به منذ ترعرعا

تخيرته للملك قبل فطامه ... وأقطعته الدنيا فطيماً ومرضعا

فلا الملك يخلو باعه من محمد ... ولا هو منه، بل هما هكذا معا

أما الحزب الفارسي - وعلى رأسه البرامكة - فكان هو أهم مع عبدالله المأمون - لأن أمه فارسية - وكانوا يقدمونه على محمد. ويسعون في تفضيله عند أبيه الرشيد. ولكن شخصية زُبيدة وتأثيرها القوي على الرشيد، كانا يقفان أمام نواياهم، وكان الرشيد إذا ما

خلا بالبرامكة، يعترف لهم بتأثير زُبيدة وبني هاشم عليه في تفضيل محمد على عبدالله.

فأقبل الشعراء - وهم دعاة الأحزاب - على التنويه بمكانة محمد ومنزلته عند بني هاشم، وكانت زُبيدة تجزل لهم العطاء، حتى قال الرشيد يوماً لعمه: يا عم: «إن الشعراء أكثروا في مدح محمد بسبب أم جعفر، ولم يقل أحد منهم في المأمون، وأنا أحب أن أقع على شاعر فطن ذكي يقول فيه».

والبرامكة من نعلم دهاءهم واستئثارهم بالحكم، فهم لم ييأسوا من تفوق محمد عند الرشيد، وكثرة إقبال الناس عليه، وما زالوا يحببون عبدالله إلى الرشيد حتى جعلوه يعقد ولاية العهد له بعد محمد.

ولم تكن زُبيدة راضية بما فعل الرشيد، فقد جعل لعبدالله بلاد الشرق، وفيها أهل الرأي والتدبير، والعدة والقوة، والجيوش الخراسانية التي قامت على أسنتها الدولة العباسية، ومع الأمين بلاد العراق وهم - إذ ذاك - أهل الأهواء، كل بلد تميل إلى حزب، وتناصر دعوة فعتبت على الرشيد بقولها: «ما أنصفت ابنك محمداً، حيث وليته العراق، وأعريته من العدد والقوة، وصيرت ذلك إلى عبدالله دونه» وهي تعلم حق العلم أن تدبير الأمر كان من البرامكة - زعماء الحزب الفارسي - فإنهم هم الذين خوّفوا الرشيد من محمد، وحسّنوا سيرة عبدالله إليه، فاستقر رأيه على ذلك، ولذا نرى الرشيد يصرح بالأمر لزُبيدة، ويجاوب بجواب لم تكن تتوقعه منه: «ما أنت وتخير الأعمال وأخبار الرجال؟ إنما وليت ابنك السلم وعبدالله الحرب، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم، ومع ذلك فإنا نتخوف ابنك على عبدالله ولا نتخوف عبدالله على ابنك إن بويع»

فسكتت زُبيدة ولم تجاوبه، وعلمت أنه يكلمها بلسان البرامكة الذين حاكوا الشرك فاضطغنتها لهم، وأخذت ترقب الفرص للتنكيل بهم.

وفي سنة ١٨٠هـ خرج الرشيد حاجاً، ومعه وليا عهده محمد وعبدالله، وكتب شروط البيعة بينهما بصحيفة علقها بالكعبة، وحلف ولديه على العمل بما جاء فيها، ولما تقدم محمد وحلف للرشيد وأراد الخروج من الكعبة، رده جعفر بن يحيى البرمكي وقال له: «فإن غدرت بأخيك خذلك الله» وفعل معه ثلاثاً فزاد حقد زُبيدة على البرامكة، وأخذت تكيد لهم، وكانت أحد الذين حرضوا الشديد على الفتك بهم، وكان جعفر أول من قتل منهم.

وفي سنة ١٩٣هـ توفى هرون الرشيد بطوس، وكانت زُبيدة مقيمة بالرقة، وعبدالله المأمون بخراسان، ومحمد الأمين ببغداد فسار صالح بن هرون إلى الأمين بخاتم الخلافة، فبويع وصار أمير المؤمنين بعد الرشيد.

أما زُبيدة فأرادت البقاء بالرقة البلدة الجميلة التي أعجبتها وأعجبت الرشيد، فقد بنى له قصراً فيها، وقضى شطراً من خلافته فيه هو وزُبيدة. ولعل زُبيدة آثرت هذه البلدة لهدوئها وجمالها، ولتستعيد فيها ذكرياتها مع الرشيد.

أما الأمين فألح على أمه بالعودة إلى بغداد، فلم ترد بدأً من إجابة طلبه، وكان دخولها بغداد يوماً مشهوداً، واخترق موكبها دار السلام بين الهتاف والتهليل لأم الأمين وزوجة الرشيد، سليلة بني هاشم، واستقبلها الأمين بباب دار الخلافة، وأحلها بالمنزلة اللائقة بها.

ثم دار الفلك دورته، ودبت عقارب السعاية بين الأخوين، وتعصب الفرس للمأمون، وسعروا نار الحرب بينهما.

وكانت زُبيدة تنظر إلى هذا النزاع بعين الوجل، وتتوقع بأن الدائرة ستكون على ابنها، ولذا فإنها لم ترض بالأمر، وحاولت إطفاء الفتنة، ولكن الفرس كانوا يزيدون في تسعيرها، وقد حذرت السيدة زُبيدة ابنها عاقبة الأمر، ولكنه لم يستمع إليها.

وأخذت تخفف من وطأة النزاع، وتظهر حبها وحنوها على المأمون، لعل الأمر يؤدي إلى التوفيق بينهما، ومن ذلك: أن علي ابن عيسى لما أرسله الأمين إلى خراسان بالجيش. حضر إلى باب زُبيدة ليودعها، فقالت له: «يا علي إن أمير المؤمنين - وإن كان ولدي وإليه انتهت شفقتي - فإني على عبدالله منعطفة مشفقة، لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ولدي ملك نافس أخاه في سلطانه فاعرف لعبدالله حق ولايته وإخوته،. ولا تعنف عليه بالكلام، فإنك لست له نظيراً، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا توهنه بقيد أو غل، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً، ولا تعنف عليه في السير، ولا تركب قبله، وخذ بركابه إذا ركب، وإذا شتمك فاحتمل منه» قال: «سأفعل ما أمرت به» وهكذا نجد السيدة زُبيدة تقف في الأمر موقف الحذر المتوقع نتيجة يعلمها.

أما الفرس فكان موقفهم شديداً في هذا النزاع، وأبوا إلّا أن يقضوا على نفوذ العرب، ويعيدوا نفوذهم في الخلافة كما كان أيام البرامكة، وما زالوا يذكون نار الحرب، ويزيدون في تسعيرها بين الأخوين، ويؤلبون الناس على حرب الأمين.

والأمين كان مجداً في حشد الجيوش، وتقديم العدد والعُدد

للذود عن الخلافة، وكان تجسس الفرس القوي، يفل كل ما يبرم، ويبطل كل ما يدبر، وهكذا ما زالوا في تفوق حتى أحاطوا ببغداد، والأمين لا يبالي معتمداً على شجاعته وبطولته.

أيقنت زُبيدة أن ابنها مخلوع ومقتول، لأنها تعلم نوايا الفرس وما كانوا يكيدونه للعرب، فدخلت على ابنها باكية لعله يلين لها، فينزل على شروط القوم ويسلم، أما الأمين فإنه لم يرض برأيها، ولما ألحت عليه قال لها: «مه أنه ليس بجزع النساء وهلعهن، عقد التيجان والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع، وراءك، وراءك».

رجعت زُبيدة باكية والهة، تترقب نبأ الفجيعة، وما هي إلّا أيام حتى دخل عليها بعض خدمها: فقال لها: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد! فقالت له ويلك ما أصنع؟ فقال لها: تخرجين فتطلبين بثأره، كما صنعت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت زُبيدة! إخسأ لا أم لك، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال!! ثم أمرت بثيابها فسودت، ولبست مسحاً من شقر وقالت ترثيه:

أودى بالفين من لم يترك الناسا ... فامنح فؤادك عن مقتولك الباسا

لما رأيت المنايا قد قصدن له ... أصبن منه سواد القلب والراسا

فبت مكتئباً أرعى النجوم له ... أخال سنته في الليل قرطاسا

والموت كان به والهم قارنه ... حتى سقاه التي أودى بها الكاسا

رزئته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت له للدهر أساسا

فليس من مات مردوداً لنا أبداً ... حتى يرد علينا قبله ناسا

ثم دهاها ما أنساها هذه المصيبة، فإن طاهر بن الحسين نهب قصرها، وانتهك حرمته، فخرجت السيدة زُبيدة - زوجة الرشيد،

وأم الأمين، وحفيدة المنصور - مكشوفة الرأس، حافية القدمين، تطلب النصير، وتبغي الملجأ، فعل هذا قوم قد أكل الحسد قلوبهم، وكادوا لهذه السيدة الجليلة وحزبها، فلم يراعوا حرمتها ومنزلتها السامية، كأن لم يكونوا بالأمس يلتمسون رضاها، ويسعون في ركابها، فسبحانك ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وكتبت إلى المأمون:

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل راق فوق أعواد منبرِ
ووارث علم الأولين وفخرهم ... وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعها ... إليك ابن عمي مع جفوني ومحجري
وقد مسني ضر وذل كآبة ... وأرق عيني يا ابن عمي تفكري
دهمت لما لاقيت بعد مصابه ... فأمري عظيم، منكر جد منكر
سأشكو الذي لاقيته بعد فقده ... إليك شكاة المستضير المقهر
وأرجو لما قد مرّ بي مذ فقدته ... فأنت لبثي خير رب مغير
أتى طاهر - لا طهر الله طاهراً ... وما طاهر في فعله بمطهر
فأخرجني مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالي، وأخرب أدوري
يعزّ على هرون ما قد لقيته ... وما نالني من ناقص الخلق أعور
فإن كان ما أسدي لأمر أمرته ... صبرت لأمر من قدير مقدر

فلما قرأ المأمون شعرها، بكى، ثم قال: «اللهم إني أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)» لما بلغه

قتل عثمان: «والله ما أمرت ولا رضيت، اللّهم جلل قلب طاهر حزناً».

● ثروتها

كانت زُبيدة تملك ثروة طائلة، حتى ضرب الحريري المثل بها فقال: «لو حبتك شيرين بجمالها، وزُبيدة بمالها». وقد بالغ المؤرخون فيها حتى ذكر بعضهم أنها تفوق الحصر. ومما لا شك فيه أن ثروتها كانت مستمدة من ثروة الرشيد، كما كان لها إقطاعات كثيرة، تدر عليها خيرات وافرة في كل سنة، ومن إقطاعاتها:

❶ نهر الهنيء والمريء

وهما نهران حفرهما الخليفة هشام بن عبد الملك، يأخذان ماءهما من الفرات، وبعد أن يسقيا بساتين ومزارع كثيرة، يصبان في الفرات، وبنى عليهما هشام، الضيعة التي سميت باسم النهرين «الهنيء والمريء» واستحدث أيضاً عليهما «واسط الرقة» وكانت هذه المقاطعة من الأملاك التي تدر على الخليفة ثروة طائلة كل سنة، قال جرير يمدح الخليفة هشام:

أوتيت من جذب الفرات جوارياً   منها الهنيء وسابح في قرقرى

ثم إنها قبضت في أول الدولة العباسية، ثم صارت لأم جعفر زُبيدة. فعمرت فيها القطعة التي تنسب إليها - وزادت في عمارتها - وصارت إحدى المنتزهات، يقول فيها الصنوبري:

ما لي نأيت من الهنيء، وكنت لا   أستطيع أنأى عنه طرفة عين
لو حمل الثقلان ما حملت من   شوق، لأثقل حمله الثقلين

٢ نهر الصلح

نهر يستمد ماءه من دجلة، فوق واسط، وعلى الجانب الشرقي «فم الصلح» بها كانت منازل الحسن بن سهل، وحول النهر مزارع وبساتين وقرى عامرة، أهدته إلى بوران بنت الحسن بعد زفافها إلى المأمون.

٣ قطيعة أم جعفر

محلة ببغداد عند رأس التين، وهو الموضع الذي فيه مشهد الإمام موسى الكاظم رضي الله عنه، كان يسكنها خدم أم جعفر وحشمها.

• تحفها

فقد جمعت من الطرف والتحف والنوادر والأحجار الكريمة ما لم يتهيأ لغيرها، وبذلت الأموال الكثيرة في الحصول على كل غال ونفيس فصار عندها مجموعة فريدة، منها:

١• **ملعقة كبيرة من الجوهر**: تلمع كالشهاب إذا أخرجت، ذكروا أن قيمتها ثلاثمائة ألف دينار.

٢• وسبحتها من يواقيت رمانية كالبنادق، محزوزة مثل شرائح البطيخة، وكانت السبحة مضرب الأمثال، يقول عنها البيروني: إذا وجد منها الآن شيء عرف بها، وهي درة فريدة.

٣• وكانت تملك قضيباً من زمرد قدر ذراع، على رأسه طائر من ياقوت أحمر، اشترته بأربعة وثمانين ألف دينار.

٤• **البدنة الأموية وتسمى بدنة عبدة**: وهي ثوب منسوج باللآلئ،

والأحجار الكريمة، كان في ظهرها وصدرها خطان من كبار الياقوت - عملت لعبدة زوجة الخليفة هشام بن عبد الملك - وبعد انقراض الدولة الأموية، صارت البدنة إلى عبدالله عم السفاح، ولما قاتله أبو مسلم أخذ البدنة مع ما أخذه من الأموال، وسلمها إلى المنصور، فكانت في خزائن بني العباس إلى أن صارت إلى زُبيدة بنت جعفر.
ولما زفت بوران إلى المأمون، حضرت زُبيدة حفلة الزواج وألبستها بيدها البدنة الأموية، ثم صارت إلى المتوكل، فبعث بها إلى ابنة عبدالله بن طاهر، التي زوّجها من ولده المعز، وهكذا خرجت البدنة من بني العباس، وطوي خبرها.

● مشاريعها العمرانية

أنفقت السيدة زُبيدة الكثير من ثروتها على المشاريع الخيرية التي تعود على العباد والبلاد بالنفع العميم. فقد كانت مطبوعة على عمل الخير، والأخذ بيد الضعيف، والعطف على الفقراء والمعوزين، كما أنفقت على المساجد والقناطر والجسور والطرق وعيون الماء، ومؤاساة الضعفاء وأهل الحاجة، ولم تزل بعض مشاريعها العمرانية باقية إلى اليوم، تشهد بما كان للسيدة الجلية القدر، من الأيادي البيضاء في سبيل إعمار البلاد وتخفيف آلام العباد، وتسهيل الراحة والطمأنينة إليهم، يقول الجاحظ: «ولو ذكرت معروف أم جعفر وحدها، لأتى ذلك على جميع صنائع بني مروان، وذلك معروف».
ومن مشاريعها العمرانية الكبيرة:

❶ عين زُبيدة

الماء في مكة المكرمة نزر قليل، ويعاني أهلها صعوبة في فصل الصيف، خاصة في موسم الحج، حتى يقال إن راوية الماء قد تصل في بعض الأيام إلى دينار واحد، وكان سقي الماء للحجاج في هذا الموسم، من أهم الخيرات التي يتقرب بها المسلمون إلى الله تعالى.

شاهدت السيدة زُبيدة هذا بنفسها سنة ١٨٦هـ عندما حجّت مع هرون، فتألمت كثيراً على أهل بيت الله الحرام وقصاده، وأمرت أن يوصل الماء إلى مكة المكرمة، من عين (المشاش) التي تبعد عن مكة المكرمة خمسة وثلاثين كيلومتراً، وبعد أن أجرى المهندسون وأهل الرأي الكشف على تكاليف المشروع، رفع إليها وكيلها تقريراً وأعلمها أن النفقة التي يتطلبها هذا العمل الجليل، كبيرة جداً. فأمرته أن يباشر به، ولو كلفت نقرة الفأس ديناراً، وأرسلت من بغداد المهندسين وأهل الرأي والتدبير، واستمروا في العمل.

وعين المشاش، تنبع من جبال «طاد» وتسير في وادي «حنين» المشهور، فخفروا المجرى ومهدوا له في الخفض والمرتفع، وأجروا الماء في قناة، ومدوا القناة بمجرى آخر ينبع من جبال «كرا» التي تبعد عن شرقي جنوبي عرفات بنحو اثني عشر كيلومتراً، يجري في وادي النعمان إلى القناة الرئيسية.

ثم سيّروا إلى القناة سبع قنوات أخرى من الجهات التي تسقط إليها السهول حتى تساعد ماء المجرى الأصلي.

كانت المياه تسير في القناة حتى عرفة، ثم إلى المزدلفة، ثم إلى مُنى، ومن جنوب مُنى، نقروا للماء خزاناً كبيراً يصب فيه، ومن

الخزان سيّروا القناة إلى مكة المكرمة، وعملوا له قنوات تحت الأرض، وجعلوا لها أحواضاً في شوارعها يملأ منها الناس.

وقد أجمع الذين ترجموا للسيدة زُبيدة، أنها أنفقت على هذا المشروع مليون وسبعمائة ألف دينار - سوى العمال الذين أرسلتهم وتطوع الناس في العمل.

وبعد أن تم العمل - رفع إليها وكيلها دفاتر الصرف لتنظر فيها، وكانت في قصرها على دجلة - فأخذت الدفاتر ورمتها في دجلة وقالت: «تركنا الحساب ليوم الحساب» فمن فضل عنده شيء فهو له، ومن بقي له أعطيناه.

وأن العمل كان متقناً للغاية لإخلاص القائمين به، وبذل السيدة زُبيدة عليه، وقد وصفها اليافعي - أحد مؤرخي القرن الثامن الهجري بقوله: «إن آثارها باقية، ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة، مما يتنزه برؤيتها، على يمين الذاهب إلى مُنى من مكة، ذات بنيان محكم في الجبال تقصر العبارة عن وصف حسنه. . . .» ولم تزل العين باقية إلى اليوم تشهد بفضل السيدة زُبيدة - رحمها الله -.

٢ طريق الحج

كان الحجاج العراقيون يسلكون الطريق الذي يسلكونه في هذه الأيام، وهو من النجف إلى نجد ثم إلى الحجاز. والطريق مقفر ممحل، نبته قليل، وماؤه نزر، ولربما قطع الركب أياماً فلا يجدون ماء، وقد يضل بعضهم الطريق، فيهلكون عطشاً، وصار سقي طريق الحج مما يضرب به المثل.

سلكت السيدة زُبيدة الطريق، ووقفت على أهواله ومصاعبه، وما

يكابده قصاد بيت الله الحرام من الشدائد، فأمرت أن تحفر برك وآبار، وتتخذ مصانع للماء على طول الطريق، فجعلت في كل مرحلة بركة أو بئراً أو مصنعاً للماء، يزل حوله الحجاج، يشربون ويسقون دوابهم، ويتزودون منه للمرحلة القادمة، فأراحت عباد الله من الظمأ، وبنت قبباً حول المصانع والأحواض، لكي يهتدي بها الحجاج، فلا يخرجون عن الطريق، وتكون مأوى لهم في الحر والقر، وبذا سهلت الطريق إلى بيت الله الحرام، وسلكها الناس من مختلف الأقطار. وممن سلكها في القرن السادس: «ابن جُبير» الرحالة الأندلسي، وذلك عند سفره من مكة إلى دار السلام، ووصف مراحلها وآبارها ومصانعها وصفاً جامعاً، وختم كلامه بقوله: «هذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة، من آثار زُبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور، زوج الرشيد وابنة عمه، انتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومصانع تعم، ورفداً لله تعالى في كل سنة من لدن وفاتها حتى الآن، ولولا آثارها الكريمة في ذلك، لما سلكت هذا الطريق، والله كفيل بمجازاتها والرضى عنها».

٣ رباط زُبيدة وحصنها في طريق البزخشاني

وكانت تتفقد المحلات النائية المنقطعة، والتي يصعب على الناس اجتيازها، فتؤسس فيها الأبنية التي تريحهم وتكون مأوى لهم، وتزيل وحشتهم وتطمنهم على حياتهم، والبذخشاني بلدة نائية في أعلى طخارستان متاخمة لبلاد الترك، بينها وبين بلخ ثلاث عشرة مرحلة، ومثلها بينها وبين ترمذ. وكان الناس يتخوفون الطريق، لمتاخمته لبلاد الترك، فبنت فيه رباطاً كبيراً لنزول المسافرين، وجعلت به حصناً عجيباً، قل ما رأى الناس مثله.

٤ وجاء في دائرة المعارف للبستاني

أنها وصلت الماء إلى بيروت من جبل لبنان إلى وادي المكلس، فبنوا له القناطر حتى جرى الماء فوقها إلى جانبه الثاني، ثم إلى بيروت. وذلك أن السيدة زُبيدة مرّت ببيروت فوجدت ماءها قليل ففعلت هذا.

٥ دار القوارير

كانت لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن مناف، ثم صارت للعباس ابن عتبة بن أبي لهب، ثم صارت لأم جعفر زُبيدة، فاستعملت في بنائها القوارير، فنسبت إليها. وكان حماد البربري بناها قريباً من خلافة الرشيد، وأدخل بئر جُبير بن مطعم بن عدي بن نوفل فيها، وكانت تجاور بيت الله الحرام.

• تأثيرها في المجتمع

ترفعت السيدة زُبيدة أن تتخذ لها الحلي من الذهب والفضة ، الأحجار الكريمة، فهي أرفع من أن تحلي جيدها بقلادة، أو أصبعها بخاتم، أو تضع سواراً في معصمها. ذلك لأن جيدها أجمل من العقد، ومعصمها أجمل من أن يوضع فيه سوار، وأذنها أرفع من أن تعلق بها قرطاً، فهي «درة بني العباس».

وأحدثت في الأزياء والأثاث والأواني، ما جعل سيدات البيت المالك والطبقات المترفة يقتدين بها. فمما أبتدعته:

أنها بالغت في وشي الثياب الحريرية بنقوش دقيقة، فكانت تلبس الثياب الموشاة، وقد ذكروا أنه صنع لها أثواباً من الوشي الرفيع ما بلغ ثم الثوب الواحد خمسين ألف دينار.

وكانت كثيراً ما تلبس جلباباً شاملاً إلى الأرض، وتضع على هذا الجلباب وشاحاً مرصعاً بالجواهر النادرة، تشده بين عاتقها وخصرها.

وهي أول من أتخذ القبقاب من الفضة والأبنوس، وكلاليبها من الذهب والفضة، ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير الملون، من الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق.

وهي أول من اتخذ الخفاف المرصعة بالدر والجوهر والأحجار الكريمة.

وهي أول من اتخذ الآلات من الذهب والفضة المكللة بالجوهر.

وهي أول من اتخذ شماع العنبر، توقد في لياليها.

كانت عُلية بنت المهدي قد ابتدعت العصابة المكللة بالجواهر واللآلئ، توضع في مقدم جبهتها طرة، مرصعة بالماس على شكل طائر عيناه من الزمرد، ذي أجنحة، فقلدتها السيدات، وتفنن في تزيين عصاباتهن بما يملكنه من الأحجار الكريمة. أما السيدة زُبيدة فإنها ترفعت أن تقتدي بغيرها، فكانت تضع على جبينها الناصع قطعة من النسيج الأسود الرقيق، خالية من الترصيع والتطريز فتزيدها جمالاً وجلالاً، وتكسبها هيبة وروعة.

ومما أحدثته، الدر المثقوب بالتصليب، لتتخذ لوصائفها ثياباً منسوجة منه، وتبعها الناس في ذلك.

وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري يختلفون على الدواب في حاجاتها، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها.

ولما رأت شغف ابنها الأمين بالخدم، وأنه قدّمهم وآثرهم، ورفع منزلتهم ككوثر وغيره، اتخذت الجواري المقدودات، الحسان

الوجوه، وعمت رؤوسهن، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق، فبانت قدودهن، وبرزت أردافهن، وبعثت بهن إليه، فاختلفن بين يديه، فاستحسنهن واجتذبن قلبه، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة، فسموهن «الغلاميات»، فاقتدى الناس بذلك، واتخذوا الجواري الطموحات وألبسوهن الأقبية والمناطق، وانتشر هذا بعدها في قصر الخلافة، وغلبوا الخدم، وصار عليهن المعول في خدمة القصر، وتصريف أموره.

وقد شوهد المأمون يوم الشعانين، وبين يديه عشرون وصيفة متزرات قد تزين بالديباج، وزرقن الأصداغ، فقال أحمد بن صدقة فيهن:

ظباء كالدنانير ملاح في المقاصير
جلاهن الشعانين علينا في الدنانير
وقد زرفن أصداغاً كأذناب الزنابير

ثم انتشر هذا في قصور المترفين. فاتخذت «زينة بنت المهلبي» الجواري الأتراك حجاباً في زي الرجال، على ما جرى به رسم السلطان.

يقول المسعودي عن زُبيدة: وتشبه الناس في سائر أعمالهم بأم جعفر، مما يتباهى الملوك في أعمالهم، وينعمون في أيامهم، ويصونون به دولهم، ويدونون أفعالهم وسيرهم. فكان في فعلها وحسن سيرتها في الجد والهزل ما برزت فيه على غيرها.

● إجلالها العلماء

كانت السيدة زُبيدة تجل العلماء، وتنزلهم المنزلة اللائقة بهم، وتبذل لهم العطايا الوافرة إكراماً لهم، وتقديراً لعلمهم وفضلهم.

وكانت قد جعلت في قصرها محلاً خاصاً يجلس فيه الحُساب والمتطببون، لاهتمامها بهذين العلمين. وكانت تدفع لجبريل بن بختيشوع خمسين ألف درهم في كل سنة، عدا الهدايا والألطاف.

وكان لأبي يوسف - صاحب الإمام أبي حنيفة - منزلة سامية عندها، فكانت تجزل له العطايا. أهدت إليه مرة حق فضة فيه حقان من فضة، وطبقان في كل واحد لون من الطيب، وفي جام دراهم، في وسطها جام فيه دنانير. فقال له جليس: قال: رسول الله ﷺ: «من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها»: فقال أبو يوسف: كانت الهدايا اللبن والتمر.

وكان لها في قصرها مائة جارية، يحفظن القرآن الكريم، ولكل منهن دور عشر القرآن تقرأه، وكان السائر قرب قصرها يسمع دوياً كدوي النحل من قراءة القرآن.

● **أدبها**

كانت السيدة زُبيدة أديبة شاعرة، تقرض الشعر في المناسبات، ولها مآخذ على الشعراء، تشهد باطلاعها على دقائقه وفنونه، فهي ناقدة بصيرة.

وكان في دارها ندوة يقصدها الشعراء والمغنون، يعرضون عليها أشعارهم وألحانهم، وهي تسمع لهم من وراء حجاب، ولها جوارٍ يقمن بالإشراف على ما يكون في الندوة وتبليغ ما تأمر به السيدة أم جعفر التي كانت تجزل العطايا للنابغين منهم.

جاءها شاعر من غثاث الشعراء فامتدحها بقصيدة قال فيها:

أزُبيدة ابنة جعفر ... طوبى لزائرك المثاب

تعطين من رجليك ما ... تعطي الأكف من الرغاب

فوثب إليه الخدم والحشم، وهموا به، فمنعتهم وقالت: «أراد خيراً فأخطاه، ومن أراد خيراً فأخطأه، أحب إلينا ممن أراد شراً فأصاب، سمع قولهم: شمالك أندى من يمين غيرك، وقفاك أحسن من وجه غيرك وظن أنه إذا قال هذا أبلغ في المديح، أعطوه على ما أمّل، ونبهوه على ما أهمل».

قال أبو نواس: «والله لو ورد هذا على العباس بن عبد المطلب جدها، ما كان عنده من الحلم والاحتمال وتسهيل الأمر ما كان عند هذه المرأة، وهي من بنات أبنائه، ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته».

اجتمع في ندرتها جماعة من الشعراء والمغنين، وعرضوا ما قالوه من الشعر، وما صاغوه من الألحان، فخرجت إليهم جارية لها، وكمها مملوء دراهم، فقالت: أيكم القائل؟:

من ذا يعيرك عينه تبكي بها   أرأيت عينا للبكاء تعار؟

فأومىء إلى العباس بن الأحنف، فنثرت الدراهم في حجره، فنفضها فلقطها الفراشون، ثم دخلت ومعها ثلاثة نفر من الفراشين على عنق كل فراش بدرة فيها دراهم، فمضوا بها إلى دار العباس بن الأحنف الذي نال شعره رضاء أم جعفر.

وكان أعظم ما يسرها أن تسمع مدح ابنها «محمد» ولي عهد الرشيد، فهو قرة عينها وأملها الوحيد، خاصة وأن له منافساً من أخيه عبدالله، فأقبل الشعراء على هذا المعين الفياض ينهلون منه، ويحلون جيد الأمين بغرر من قصائدهم.

ولما جلس محمد الأمين للتعليم، كان سنه أربع سنوات، فدخل أشجع الشاعر المشهور فأنشده:

ملك أبوه وأمه من نبعة منها سراج الأمة الوهاج
شربت بمكة من ربا بطحائها ماء النبوة ليس فيها مزاج

فأمرت له السيدة زُبيدة بمائة ألف درهم.

وأشجع هذا، كان شاعر أبيها جعفر الأكبر، وبعد وفاته، وصلته السيدة زُبيدة بالرشيد، فجعله من شعرائه، فكان عليه لزاماً أن يمدح الأمين.

وأبو العتاهية من أكبر شعراء الدولة العباسية، وشاعر الرشيد المقرب إليه، ونديمه في خلواته، وله في الرشيد قصائد ومواعظ.

فلما تمت البيعة للأمين مدحه بقوله:

يا ابن عم النبي خير البرية إنما أنت رحمة للرعيَّه
يا إمام الهدى الأمين المصفى بلباب الخلافة الهاشميه
لك نفس أمارة لك بالخيـ ـر، وكف المكرمات نديه
إن نفساً تحملت منك ما حمد ت للمسلمين، نفس قويه

ثم عرج على دار أم جعفر يطلب جائزتها: فقالت له: أنشدت أمير المؤمنين؟ فأنشدها ما قاله. فاستصغرت القصيدة، وعتبت عليه بقولها: أين هذا من مدائحك في المهدي والرشيد؟ قال: إنما أنشدت أمير المؤمنين ما يستملح، وأنا القائل فيه:

يا عمود الإسلام خير عمود والذي صيغ من حياء وجود
والذي فيه ما يسلى ذوي الأحـ زان عن كل هالك مفقود
والأمين المهذب الهاشمي القر م محض الآباء، محض الجدود
إن يوماً أراك فيه، ليوم طلعت شمسه بسعد السعود

فقالت له: الآن وفيت المديح حقه، وأمرت له بعشرة آلاف درهم.

كان المأمون يعطيها كل سنة مائة ألف دينار جدد، ومليون درهم، وكانت تعطي أبا العتاهية منها كل سنة مائة دينار وألف درهم. فأغفلته سنة فرفع إليها رقعة فيها:

خبروني أن في ضرب السنة جدداً بيضاً وصفراً حسنه

سككاً قد أحدثت لم أرها مثل ما كنت أرى كل سنة

فأمرت بإرسال المبلغ إليه.

كانت تقرض الشعر، ولها شعر رقيق، صادر عن قلب شاعر فلما ماتت «فطم» زوجة الأمين وأم ولده موسى الناطق بالحق جزع عليها الأمين جزعاً شديداً فلما اتصل الخبر بأم جعفر، قالت: أحملوني إلى أمير المؤمنين فحملت إليه: فاستقبلها وقال: يا سيدتي ماتت «فطم».

فقالت له:

نفسي فداؤك لا يذهب بكل اللهف ففي بقائك عما قد مضى خلف

عوضت موسى فماتت كل مرزئة ما بعد موسى على مفقودة أسف

جاءها الرشيد يوماً وقال لها: قد تهتك كاتبك سعدان، فاعزليه.

قالت: وبأي شيء تهتك؟ قال بالمرافق والرشا: حتى قال فيه الشاعر:

صُب في قنديل سعدا ن مع التسليم زيتا

وقناديل بنيه قبل أن تحفى الكميتا

قالت له: وقد قال الشاعر في كاتبك أبي صالح، يحيى بن عبد الرحمن أشنع من هذا، قال الرشيد: وما قال؟ قالت مرتجلة:

قنديل سعدان على ضوئها   فرج لقنديل أبي صالح
تراه في مجلسه أحوصاً   من لمحه للدرهم اللائح

قال لها الرشيد: كذب على كاتبي وكاتبك.

وكتبت إلى الرشيد يوماً تعاتبه:

وعاشق صب بمعشوقه   كأنما قلباهما قلب
روحاهما روح، ونفساهما   نفس، كذا فليكن الحب

ولها مراثي كثيرة في ابنها الأمين: كما كانت تستعمل الشعر في المراسلات. وعلى كل فهي شاعرة مقلة، ولكن شعرها مما تلتذ به النفس، لأنه صادر عن روح شاعرة.

كانت زُبيدة فصيحة اللسان، عالمة بدقائق اللغة يقول الجاحظ عنها: «كانت زُبيدة أفصح الناس، وأعقل الناس».

وكانت توقيعاتها في كتبها مما يتسابق إليها الكتاب ويتناقلونها، فهي في غاية الاختصار ودقة التعبير. وقعت في ظهر كتاب ورد إليها من أحد عمالها «أصلح كتابك وإلّا صرفناك عن عملك» فتأمله العالم فلم يظهر له فيه شيء. فعرضه على من لهم وقوف تام على الكتابة. فرأى فيه الدعاء لها، وأدام الله كرامتك، فقال له إن كرامة النساء دفنهن. لذا فإنها ظنت أنك دعوت لها، فغير الكاتب الكتاب وأعاده عليها.

وذكر لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى فقال: «قد رأيت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها، فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع المعاني».

لما رفع إليها وكيلها نفقة حجتها - وقد بلغت مليون درهم - وقعت في ظهر الكتاب «ثواب الله بغير حساب».

ووقّعت على دفاتر الصرف على عين زُبيدة «تركنا الحساب ليوم الحساب».

ورفعت إليها رقعة حساب غلاتها، فخرج توقيعها: «أنا أحمد الله على نعمته وأسأله - إذا وسع علينا - أن يجعلنا موسعين لحاشيتنا، وأن لا يجعلنا محاسبين».

ولما دخل المأمون بغداد، زار السيدة زُبيدة وقال لها: «لن تعدمي منه إلّا عينيه، وأنا ولدك مكانة». قالت له: «إن ولداً أفادنيك جدير أن أجزع عليه».

حبست وكيلاً لها في مبلغ، فكتب الفيض إلى وكيله، يأمره أن يدفع المبلغ إلى وكيل أم جعفر، ولكنها أبت أن يسبقها أحد في مكرمة، لما عرض عليها كتاب الفيض، كتبت في أسفله: «أنا أولى بهذه المكرمة من الفيض، فاردد عليه كتابه، وادفع إليه الرجل، وأمره ألّا يعود إلى مثل ما كان منه».

ومما كتبته إلى المأمون - بعد قتل الأمين -: «كل ذنب يا أمير المؤمنين - وإن عظم - صغير في جانب عفوك، وكل إساءة - وإن جلت يسيرة لدى حلمك، وذلك الذي عودكه الله - أطال مدتك وتمم نعمتك، وأدام بك الخير، ورفع عنك الشر والضير - وبعد: فهذه رقعة الولهى، التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكر، فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي، وقلة حيلتي، وتصل رحمي، وتحتسب فيما جعلك الله له طالباً وفيه راغباً. فافعل، وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي لديك وأرسلت الرقعة مع جاريتها خالصة، فسلمتها بيد المأمون، فلما قرأها بكى وأمر برد ضياعها إليها، وجعل لها مكاناً في قصر الخلافة، وعين الخدم والجواري لخدمتها، على ما كانت عليه في خلافة ابنها.

• حبها للغناء

كانت مولعة بالغناء، تعجبها الأصوات الجميلة، والنغمات العذبة، فبذلت المبالغ في الحصول على الجواري المغنيات، اللاتي يحسن الضرب على مختلف آلات الطرب، فاجتمع لديها عدد منهن، وكانت تفاخر بما يتقنه جواريها من الأصوات المبتكرة، وتحرص على أن تباغت بها الرشيد.

سمعت مرة ابن جامع يغني الرشيد صوتاً، فأعجبها غناؤه، فيقال أنها أعطته مائة ألف درهم عن بيت استحسنته في ذلك الصوت، ويقال أنها اشترت غلاماً لعبدالله بن موسى الهادي يجيد الضرب على العود بثلثمائة ألف درهم.

ومن جواريها المغنيات المبدعات «قلم» كانت تضع الأصوات الجميلة، وتباغت بها المغنين والمغنيات، غنت مرة بحضرة المأمون صوتاً من وضعها، فأعجب به علي بن هشام، فيقال أنه رشا لمن أخرجه من دار «زُبيدة» بمائة ألف دينار، وطرح الصوت على جواريه حتى تعلمنه، ولو علمت السيدة زُبيدة لاشتد عليها، ولو سألها أن توجه به لما فعلت.

ومن المغنين الذين كانوا في ندوتها «مخارق» كان يهوى جارية لها اسمها «نهار» أراد أن يتوصل إليها، فلم يتمكن، وصار يتوقع أخبارها، وحج بالسنة التي حجت بها أم جعفر بسبب الجارية، ولما علمت أقصته، ومنعته من المرور ببابها، فقطعها وتجافاها إجلالاً لأم جعفر، وضاق به الأمر، ولم يطق صبراً وأخذ يحتال للأمر بأن يباغت أم جعفر بصوت جديد، لعل هذا يجد طريقاً إلى قلبها، فترق له وتعطف عليه.

كان يوماً في «زلال» منصرفاً من دار المأمون، وأم جعفر في مجلسها على دجلة، ولما حاذى دارها، رأى الشمع يزهو فيها، والجواري في ذهاب وإياب، وهن في أتم زينة، وبينهن «نهار»، فلما صار بمسمع منها أندفع يغني:

إن يمنعون ممري قرب دارهم فسوف أنظر من بُعد إلى الدار

سيما الهوى شهرت حتى عرفت بها أني محب. وما بالحب من عار

لا يقدرون على منعي ولو جهدوا إذا مررت وتسليمي بأطماري

فسمعته أم جعفر وقالت: مخارق والله، ردوه، فصاحوا بملاحيه، قدم، قدم، وأمره الخادم بالصعود، وأمرت له أم جعفر بكرسي، وخلعت عليه، وأمرت الجواري فتغنين، ثم أمرته أن يغني هو، وإن يضرب الجواري على غنائه، فاندفع يغني:

أغيب عنك بود ما يغيره نأي المحل، ولا صرف الزمن

فإن أعش، فلعل الدهر يجمعنا وإن أمت، فقليل الهم والحزن

قد حسَّن الله في عيني ما صنعت حتى أرى حسناً ما ليس بالحسن

فلم تتمالك نهار نفسها، فاندفعت تباينه:

تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا والشغل للقلب ليس الشغل للبدن

فعلمت أم جعفر أنها خاطبته بما في نفسها، فضحكت ووهبتها له.

أحست يوماً بجفاء من المأمون، فأرسلت بأبيات إلى «مخارق» وأمرته أن يغني بها المأمون، إذا رآه نشيطاً، فغناه بها وهي:

ألا إن ريب الدهر يدني ويبعد ويؤنس بالآلاف طوراً ويفقد

أصابت لريب الدهر مني يدي فسلمت للأقدار، والله أحمد
وقلت لريب الدهر إن ذهبت يد فقد بقيت - والحمدلله - لي يد
إذا بقي المأمون لي، فالرشيد لي ولي جعفر - لم يفقدا - ومحمد

فسأله المأمون عن الخبر، فأعلمه به، فبكى ورقّ لها، وقام من وقته فدخل إليها، وأكبّ عليها وقال لها: «يا أمه، ما جفوتك تعمداً، ولكن شغلت عنك بما لا يمكن إغفاله». فقالت له: «يا أمير المؤمنين، إذا حسن رأيك، لم يوحشني شغلك».

ولما دخل المأمون عليها ليعزيها في الأمين، قالت: أرأيت أن تسليني في غدائك اليوم عندي؟ فقعد، وأخرجت إليه من جواري الأمين من تغنيه، فغنت:

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما فعلت يوماً بكسرى مرازبه

ففطن المأمون للأمر.

وذكر الزمخشري في ربيع الأبرار: إن زُبيدة قرأت في طريق مكة على حائط:

أما في عباد الله أو في إمائه كريم يجلي الهم عن ذاهب العقل
له مقلة، أما المآقي فقرحة وأما الحشا، فالنار منها على رحل

فنذرت أن تحتال لقائلها، فتجمع بينه وبين من يحبه، قالت: فإني لبمزدلفة إذ سمعت من ينشدها، فاستدعيت به، فزعم أنه قالها في بنت عم له، وقد حلف أهلها ألا يزوجوها منه. فوجهت إلى الحي، وما زالت تبذل لهم المال، حتى زوجوه، وإذا المرأة أعشق من الرجل، فكانت زُبيدة تعده في أعظم حسناتها وتقول: ما أنا بشيء أسر مني بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة.

وهوى أحمد بن أبي عثمان الكاتب جارية لزُبيدة اسمها «نعم» حتى مرض وقال فيها أبياتاً، منها:

وإني ليرضيني الممر ببابها وأقنع منها بالشتيمة والزجر

ولما علمت السيدة زُبيدة بالأمر، وهبتها له.

ولما مات الرشيد جمعت بنات بني هاشم لتنوح عليه، وأرسلت إلى إسحق بن إبراهيم الموصلي تأمره بالحضور إليها، فلما حضر، بعثت إليه تقول: إني قد جمعت بنات الخلفاء وبنات بني هاشم لننوح على الرشيد في ليلتنا هذه، فقل الساعة أبياتاً رقيقة، وأصنعهن صنعة حسنة، حتى أنوح بهن، فأراد أن يقول شيئاً فلم يحضره. وكانت هي ترسل إليه وتستحثه، فذكر أبياتاً للأحوص قد صنع نوحه معبد لسلامة ناحت به على يزيد، فبعثت إليه بكنيزة وأمرته أن يطارحها حتى تطارحه، فأخذت كنيزة العود ورددته عليه حتى أخذته، فطارحته أم جعفر، فبعثت إليه مائة ألف درهم، وناحت به أم جعفر مع بنات بني هاشم على الرشيد.

● وفاتها

وفي جمادي الأولى من سنة ٢١٦هـ، فاضت روحها، والتحقت بجوار ربها، بعد أن عاشت تسعاً وستين سنة، قضتها بالبر والإحسان، وخلدت لها ذكراً لا يمحوه كر السنين والدهور، ولو كره المغضون، فأعمالها شاهدة على ما كانت عليه من عمل الخير.

وكان يوم تشييع جنازتها مشهوداً، بكاها الفقراء، وذكرها العلماء، ورثاها الشعراء، وندبها أهل الفن، وناح عليها المغنون، لأنهم فقدوا من كان يأخذ بيدهم، وهكذا حفت بنعشها القلوب

الدامية ورفعوها على الرؤوس حتى أنزلوها في مرقدها الأخير، في مقابر قريش، بجوار الإمام موسى الكاظم رحمها الله رحمة واسعة.

هذه هي زُبيدة التي كانت مثالاً حسناً لنساء زمانها، في البر والإحسان ومؤاساة الفقراء والمعوزين، وتخفيف بؤس البائسين.

فما أجدر بالمرأة العربية أن تتخذها مثالاً حسناً تقتدي بها وتنهج طريقها.



ولّادة بنت المستكفي

٣٨٠-٤٨٠هـ

أقبل العرب والبربر في الأندلس على التزوج بالاسبانيات خاصة بنساء من القوط. وكان لهذا العنصر الجميل تأثير حسن على عملية المزج، فقلل من حدة البربر، ورقق أخلاقهم، وولّد تسامحاً كبيراً بين السكان، وصار الأندلسيون يعتبرون المرأة زهرة المجتمع. فكانت المرأة الأندلسية رقيقة الأخلاق جميلة العشرة، تخالط الرجل في الحفلات العامة، وفي المتنزهات، وتحضر مجالس العلم والأدب.

وكان في الأندلس نواد أدبية، يجتمع فيها الجنسان وتجري بينهما المساجلات الأدبية، والمناظرات العلمية، والمباريات الفنية.

وشاركت المرأة الرجل في الأعمال المختلفة، فكان منهن الطبيبة والمعلمة والحجامة والمغنية والخياطة والنساجة والكاتبة والخطاطة والمزوّقة. حتى كان في الربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، فكم كان في أرباضها التي بلغت ثمانية وعشرين ربضاً؟؟

واشتغل بعضهن بالوظائف الكتابية، فكتبن للخلفاء والأمراء

والعلماء، كما اشتغلن في التعليم والتدريس، ويذكر ابن حزم أن دراسته كانت على أيدي نساء عالمات، وأنهن تولين تعليمه، إلى أن بلغ سن العشرين.

ونبغ عدد من النساء الأندلسيات في السياسة والإدارة، وكان لهن تأثير قوي في إدارة دفة البلاد. كما نبغ كثيرات منهن في العلم والأدب والفن.

ومن السيدات اللاتي تألق نجمهن في سماء قرطبة - في القرن الخامس الهجري - (ولّادة بنت المستكفي بالله الأموي) آخر الخلفاء الأمويين. فقد كانت مثالاً للمرأة الأندلسية في الحرية والعفة والعلم والأدب والفن.

أما أبوها المستكفي بالله فقد بويع بالخلافة، والدولة تسير من سيء إلى أسوأ، والفوضى ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها، والثورات في كل صقع منها، وهو سيء التدبير، ضعيف الرأي، عطلاً من كل فضيلة، منقطعاً إلى البطالة، مجبولاً على الجهالة والمجون، لا يهمه إلّا نفسه وشهوته، وقد استولت على الحكم زوجه «بنت عسكري المروزية» وأخذت تتصرف في تدبير أمور الدولة، وتركته وشأنه.

ولما استولى بنو حمود على قرطبة، لم يهتموا بأمره ولم يفكروا في اعتقاله أو سجنه، وذلك لعدم أهميته وانهماكه في اللهو والشرب.

أما أمها: بنت عسكري المروزية، فكانت على جانب من العلم والأدب والفن، معروفة بأصالة رأيها، وحسن التدبير، ذكية الفؤاد، عاقلة، متصبرة بالأمور.

تولت بنفسها تربية ابنتها، فأنشأتها على العلم والأدب والمعارف، واختارت لها أجلّ العلماء والأدباء الذين تولوا تعليمها وتأديبها.

ولما شبت الفتاة، أخذت ترتاد نوادي الأدب، ومجالس العلم، وهي إذ ذاك كثيرة في قرطبة، فأخذت عن عدة شيوخ وحازت درجة سامية في العلوم والآداب، حتى أنها أجيزت بالفتيا والتدريس، وصارت مضرب المثل في الفصاحة والبلاغة، وممن تخرج على يدها مهجة القرطبية الشاعرة والفنانة المشهورة.

وقد أجمع الذين تكلموا عنها «أنها كانت ذات خلق جميل، وأدب غض، ونوادر عجيبة، ونظم جيد، واحدة زمانها، المشار إليها في أوانها، حسنة المحاورة، مشكورة المذاكرة، عالمة كاتبة شاعرة، تساجل الأدباء، وتناظر العلماء، وهي بالمغرب كعُلية بنت المهدي في المشرق، إلّا أنها كانت تتفوق عليها بالحسن والدلال، وخفة الروح والنوادر، ويقول عنها صاحب الخريدة: «كانت ولّادة في نساء أهل زمانها، واحدة أقرانها، غريبة الدهر، فريدة العصر، قل أن يسمح الزمان بمثلها، أو يجود الحسن على امرأة بعدها بجمالها، حضور شاهد، وحرارة آبد، وحكم منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر».

• ندوتها

كانت لولّادة ندوة في قرطبة تسمى بـ(النادي الزاهر) يجتمع فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء وأهل الفن، تمد فيها الموائد، وتعقد فيها المجالس العلمية والأدبية بحضرتها، وتشارك في

جميعها، كما كانت تشرف بنفسها على ما يدور في المجلس من الأحاديث، ولا تترك أحداً يتصرف في مجلسها إلّا بما يقتضيه المقام، تدير المناظرات، وتشرف على المساجلات، وتبدي رأيها في كل ذلك ويكون كلامها هو الفصل.

وقد وصف المؤرخون هذه الندوة العلمية بقولها: «كان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، وعلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب، وكانت ذات خلق جميل، وأدب غض، ونوادر عجيبة» وهي ذات شخصية قوية تسيطر على جلاسها، بما لها من الأدب والظرف. وتتميم المسمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب. وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب، بهرجة آية في الجمال والتنسيق، عفيفة طاهرة الأخلاق، مترفعة عن كل ما يشينها، وكانت كثيراً ما تقول:

إني - وإن نظر الأنام لبهجتي - كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواحشاً ويصدهن عن الخنا الإسلام

• ولّادة وابن زيدون

كان ممن يرتاد صالة ولّادة، شاب من أبناء الفقهاء والسراة، لم يكلفه الزمان أن يتحمل متاعب العيش، منقطعاً إلى الأدب، وهو في مقتبل العمر، جميل الطلعة، فصيح اللسان، حلو الشمائل، فوقع في قلب ولّادة، فأحبته وأحبها وتلازما، وقلما كانا يفترقان.

واتصال ابن زيدون بولّادة ألهب نفسه إلهاباً، وأكسبها شاعرية

خصبة فياضة، فأبدع في التشبيب والغزل، ووصف مجالس الأنس والطرب ما شاء، وكانت هي الباعث الحقيقي على فيض قريحته، وانطلاق لسانه، فنظم فيها أروع قصائده الغزلية.

كانت ولاّدة تزوره، كما كان يكثر من زيارتها، ولا يصبر أحدهما عن الآخر، وحدث أن تأخرت زيارتها لابن زيدون أياماً لدواع، فهاج بها الشوق، وتضاعف الوجد فكتبت إليه:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالبدر لم ينر وبالليل لم يظلم، وبالنجوم لم يسر

فأعدّ لها ابن زيدون مجلساً نضراً، وزينه بالأزهار واللطائف، والفواكه والرياحين. وبينما هو في انتظارها، أقبلت ترفل بالحرير، كأنها من الحور العين، فتقابلا وتصافحا، ودار بينهما العتاب، وقضيا مجلسهما يتعاطيان كؤوس الأدب، إلى أن آن أوان الانصراف، فودعها بقوله:

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على إن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك

إن يطل بعدك ليلي فلقد بت أشكو قصر الليل معك

ثم لم يقدر لهما أن يجتمعا مدة طويلة، لدواع سياسية اشغلته وأذهلته، فكتبت إليه تعاتبه:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي

وهل كنت أوقات التزوار في الشتا أبيت على جمر من الشوق محرق

فكيف وقد أمسيت في حال قطيعة ... لقد عمل المقدور ما كنت أتقي

تمر الليالي لا أرى البين ينقضي ... ولا الصبر في رق التشوق معتقي

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً ... بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

لحى الله يوماً لست فيه بملتقي ... فحياك من أجل النوى المتفرق

وكيف يطيب العيش دون مسرة ... وأنى سرور للكئيب المؤرق

وفي هذه الندوة كانت تعقد مجالس الأدب الرفيع، وينشد فيها ابن زيدون قصائده التي تفيض رقة وعاطفة، والتي تتدفق كالسلسبيل في حب ولّادة.

وفيها يسمع ابن زيدون صدى حبه ووجده ينعكس من قلب ولّادة، فينطلق من لسانها، ويتردد صداها في قرطبة، فيكون حديث المجالس والأندية.

كان ابن عبدوس ممن ينفس على ابن زيدون تقربه من ولّادة، وأخذ يسعى بشتى الوشايات للتفريق بينهما فلم ينجح، وأخيراً لجأ إلى الدسيسة والمكر، فما زال يغري صدر ابن جهور على ابن زيدون حتى حمله على سجنه، فصفا له الجو، وأخذ يتقرّب من ولّادة، فاتصل بها، ولكن لم يطل أمره معها، فكان هذا الاتصال وبالاً عليه، حيث عرض نفسه لتهكم ابن زيدون، فكتب فيه رسالتيه الجدية والهزلية وصارتا من الرسائل الخالدة في الأدب العربي، وهما في نقد ابن عبدوس والتهكم به.

وعلى كل فقد كان ابن زيدون وولّادة على أتم وفاق واتفاق، فلم ينسها ابن زيدون حتى في أيام نكبته، وفي أشد الأيام التي مرت عليه في السجون، فإنه كان يرسل القصيدة تلو القصيدة إليها يعبر لها عن

هيامه وشوقه، ويتذكر أيام وصاله معها، ويصف الأماكن التي كانا يجتمعان بها.

فإذا ما دخل الزهراء، تذكر من كان يرافقه فيها، وحنّ إلى رؤيتها وأخذ ينشد:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والأفق طلق، ومرأى الأرض قد راقا

وكلما ذكر ابن زيدون ذكرت معه ولّادة صديقته وأجلّ أمنيته في الحياة.

يا من غدوت به في الناس مشتهراً قلبي عليك يقاسي الهم والفكرا
إن غبت لم ألق إنساناً يؤنسني وإن حضرت فكل الناس قد حضرا

ويقول فيها أيضاً:

أما منى نفسي فأنت جميعه يا ليتني أصبحت بعض رجاك
يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم، أكاد به أقبل فاك

فولّادة قد استولت على قلبه ولم تبق فيه مكاناً لغيرها، وإذا نطق لهج بمدحها أو وصف مجالسه معها، فهي حاضرة معه في كل حال، فهو لم يتغير أبداً مهما بعد عنها، وأظلمت عليه الدنيا.

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً متكم، ولا أنصرفت عنكم أمانينا

● شعرها

ولّادة من الشاعرات المعدودات في الأندلس. وما وصلنا من شعرها يدل على تفوقها فيه، فهي جزلة القول، حسنة الشعر، ولها بعض الأشعار يعجز عن مثلها فحول الشعراء كقولها:

ولما أبى الواشون إلّا فراقنا ... وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة ... وقل حماتي عند ذلك وأنصاري
رميتهم من مقلتي وأدمعي ... ومن مهجتي، بالسيف والسيل و النار

ومن قولها تعاتب صديقة لها:

ألحاظكم تجرحنا في الحشا ... ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح، فاجعلوا ذا بذا ... فما الذي أوجب هذا الصدود؟

الدعاء بالسلامة:

ألا يا أسلمي يا دار مي على البلى ... ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

إذ هو أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، وأما المستحسن فقول الآخر:

فسقى ديارك غير مفسدها ... صوب الربيع وديمة تهمي

فأجابها ابن زيدون معترفاً لها بصحة رأيها.

ومن نوادرها الظريفة، أنها مرت يوماً بدار ابن عبدوس وهو جالس بالباب، وحوله جماعة من أصحابه، وأمامه بركة ماؤها آسن، فوقفت عليه وقالت له: **يا** أبا عامر:

أنت الخصيب، وهذه مصر ... فتدفقا، فكلاكما نهر

فلم يحر جواباً، ونقلت النكتة، واشتغل بها الناس.

عاشت ولاّدة ما يقارب مائة سنة، وتوفيت سنة ٤٨٠هـ.

الكشاف العام

(ت)

(ج)

(ح)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس القوافي

القافية	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
قافية الألف المقصورة			
قرقرى	جرير	١	٦٨
هوى	ابن سريج	١	١١
قافية الباء (الباء المفتوحة)			
ومنقبا	عُلية بنت المهدي	٣	٥٢
الباء المضمومة			
والربابُ	الحسين بن علي	٣	١٨
مرازبُه	زُبيدة	١	٨٥
قلبُ	زُبيدة	٢	٨١
تطيبُ	عُلية بنت المهدي	٢	٤٨
الباء المكسورة			
المثابِ	-	٢	٧٧
أطرابي	عمر بن أبي ربيعة	١	٩
جوابي	عُلية بنت المهدي	٢	٥٢

القافية	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
هجرُ	أبو السائب	٤	١٣
كاسرُه	الفرزدق	١	٢٣
القطرُ	-	١	٩٦
المناظرُ	-	٢	١٢
نهرُ	ولادة بنت المستكفي	١	٩٦
محبورُ	عُلية بنت المهدي	٣	٥٠
وكسيرُ	-	٢	١٠
الراء المكسورة			
ثارِ	ولاّدة بنت المستكفي	٣	٩٦
الدارِ	مخارق المغني	٣	٨٤
منبرِ	زُبيدة	١١	٦٧
فاستترِ	عروة بن أذينة	٢	٢٩
فترِ	عروة بن أذينة	٤	٢٩
والزجرِ	أحمد الكاتب	١	٨٦
للسرِّ	ولادة بنت المستكفي	٢	٩٣
منصورِ	عُلية بنت المهدي	٢	٤٠
سطورِ	عُلية بنت المهدي	٢	٤٨
خبيرِ	عُلية بنت المهدي	٣	٤٨
حريرِ	عُلية بنت المهدي	٢	٤٧
المقاصيرِ	أحمد بن صدقة	٣	٧٦
قافية السين (السين المفتوحة)			
الباسا	زُبيدة	٦	٦٦

القافية	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
السين المكسورة			
بمقباسِ	عُلية بنت المهدي	٢	٥٢
أمسي	عُلية بنت المهدي	٢	٤٧
قافية الضاد (الضاد المفتوحة)			
غضيضا	مسعر بن كدام	٢	٨
قافية العين (العين المفتوحة)			
مودعا	عُلية بنت المهدي	٢	٥١
ترعرعا	هارون الرشيد	٣	٦٢
العين المضمومة			
أربعُ	كثير عزة	٣	٢٤
تنفعُ	عُلية بنت المهدي	٢	٥٣
قافية الفاء (الفاء الساكنة)			
خلفْ	زُبيدة	٢	٨٠
قافية القاف (القاف المفتوحة)			
راقا	ابن زيدون	١	٩٥
غدقَه	سُكينة بنت الحسين	٦	٢٦
حلقا	الأحوص	٢	٢٦
القاف المكسورة			
لقي	ولادة بنت المستكفي	٧	٩٣
الشفيقِ	عُلية بنت المهدي	٢	٤٩
قافية الكاف (الكاف الساكنة)			
أنساكْ	عُلية بنت المهدي	٣	٤٧

القافية	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
الميم المضمومة			
حرامُ	ولاّدة بنت المستكفي	٢	٩٢
كلامُها	جميل بثينة	١	٢٦
لمامُ	جرير	٢	٢٧
يتكلمُ	ابن سريج	٤	١١
الميم المكسورة			
بسلامِ	جرير	١	٢٣
بتلثمِ	عنترة	٢	٢٠
تهمي	–	١	٩٦
قافية النون (النون المفتوحة)			
قتلانا	جرير	٢	٢٨
هانا	عُلية بنت المهدي	٢	٥٣
حسنَه	أبو العتاهية	٢	٨٠
المحبينا	ابن زيدون	٢	٩٥
معينا	جرير	٢	٨
النون المضمومة			
ألسنُ	عُلية بنت المهدي	٢	٤٩
النون المكسورة			
للبدنِ	نهار	١	٨٤
الزمنِ	مخارق المغني	٣	٨٤
مدفونِ	الرباب بنت امرئ القيس	٥	١٨
عينِ	الصنوبري	٢	٦٨

فهرس المحتويات


سعيد الديوه جي

- هو سعيد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن سلطان بن محمد بن مصطفى بن عبدالله بن جاسم بن طاهر بن محمد العكلي، وتنسب أسرته إلى قبيلة الجبور من عشيرة البو نجاد من فرع يقال له العكلي.
- ولد في الموصل سنة 1420-1333هـ/2000-1912م وأكمل دراسته الأولية والثانوية فيها.
- وتتلمذ على يد عمه الشيخ عثمان الديوه جي ووالده الشيخ أحمد الديوه جي اللذين كان لهما مجالس علم وفقه في دارهما، ثمّ التحق بدار المعلمين العالية في بغداد وتخرج منها سنة 1931م، واشتغل في التعليم والتدريس، ثمّ نقل إلى مديرية الآثار العامة في عام 1951م بعنوان مدير الأبحاث الإسلامية وعمل كأول مدير لمتحف الموصل منذ عام 1952م لغاية إحالته على التقاعد عام 1968م بعد خدمة تجاوزت الستة والثلاثين عاماً، عكف فيها على المتابعة وإصدار الكتب والمقالات، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العراقي عام 1965م.

ISBN 978-614-424-092-2
